روايات عالمية للجيب 59



أسطورة سليبى هولو

تأليف : واشنجتون إيرفنج

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المؤلف



واشنجتون إرفنج Washington Irving أديب أمريكى شهير، عرف بقصتيه (ريب فان وينكل) و(أسطورة سليبى هولو) اللتين نقدمهما لك هنا . ولد فى نيويورك عام ١٧٨٩ وكان له أحد عشر أخا . كان أبواه مهاجرين أسكتلنديين أعجبا بجورج واشنجتون بطل الاستقلال الأمريكى، لذا اتخذا هذا الاسم لابنهما، ويقال فى قصة أخرى أن واشنجتون هو الذى اقترح اسمه على الأبوين .. وشغف بالقراءة فى طفولته لكن رسخت فى ذهنه بشكل خاص قصتا (روبنسون كروزو) و(سندباد الملاح) .

كان (واشنجتون إرفنج) هو أول أمريكى على الإطلاق يكسب عيشه بالكامل من قلمه، بالإضافة لهذا كان رحالة ومصممًا معماريًا دبلوماسيًا !

بدأ الكتابة فى الصحف وكسب بعض الشهرة ، إلا أن مأساة شخصية ألمت به عندما توفيت خطيبته (ماتيلدا) فى سن الثامنة عشرة ، وهذا هو السبب الذى جعله لا يتزوج طيلة حياته ، ولم يتكلم عنها قط برغم أن صورتها كانت تلاحقه طيلة الوقت ..

كان مولعًا بالسفر لذا خصص جزءًا كبيرًا من وقته فى ارتياد أوروبا . وفى العام ١٨٠٩ قدم لنا حكايات ساخرة عن الجالية الهولندية فى نيويورك ، وابتكر شخصية مضحكة تدعى (ديدرتش نيكربوكر) المفترض أنه عالم هولندى يقيم فى نيويورك .. الطريف أن مصطلح (نيكربوكر Knickerbocker) صار رمزًا لجيل الكتاب الأمريكيين الأول ، كما يكنى به أى أمريكى يكتشف أن أصول أسرته هولندية .

قدم لنا واشنجتون مجموعة قصصية تدعى (بريسبريدج هول) .. ثم تلاها بمجموعة (كتاب السكتشات) الذى بدا تأثره واضحا بالقصص الشعبية الألمانية ، كما فى قصتى (ريب فان وينكل)

و(أسطورة سليبى هولو) . والحقيقة هى أن إرفنج اعترف أكثر من مرة بأن موهبته القصصية ضعيفة فلا يستطيع خلق حكاية بالكامل من لا شىء ، وهو ليس عيبًا قاتلاً إذا تذكرنا أن شكسبير نفسه لم يقدم أية قصة أصيلة . قصة (أسطورة سليبى هولو) هى التى قدمت مع تصرف كبير كما سنرى حالاً فى فيلم الرعب الشهير لـ (تيم بيرتون) عن الفارس مقطوع الرأس الذى يخيف الناس فى مقاطعة (سليبى هولو) ، وهى بالمناسبة منطقة حقيقية جنوبى نهر هدسون قرب نيويورك . هذه القصة مشتقة عن قصة للألمانى (كارل موزويس) .. وقد أنتج أوبريت عنها باسم (الفارس مقطوع الرأس) ..

بعد هذا توالت أعماله مثل (كولومبوس ١٨٢٨) و(غزو غرناطة ١٨٢٩) .. وكلها تعتمد على بحث تاريخى بالغ الدقة . مع الوقت صار خير سفير للولايات المتحدة اليافعة فى أوروبا والعالم ، إذ أحبه الأوروبيون والأسبان بشكل خاص؛ ولهذا عينه الرئيس الأمريكى سفيرًا فعليًا للولايات المتحدة فى أسبانيا . كان صديقًا

حميمًا لكاتبة فرانكنشتاين (مارى شيللى) . وعندما زار تشارلز ديكنز العظيم أمريكا طلب لقاءه لأنهما كانا يتبادلان المراسلة بانتظام ، وألقى خطابًا شكر فيه واشنجتون على مساندته له فى رواياته .

فى العام ١٨٥٥ بدأ كتابة سيرة سميّه (جورج واشنجتون) ، كما كتب كتابًا مهمًا عن النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو (محمد وأتباعه) .

توفى واشنجتون إرفنج فى ٢٨ نوفمبر عام ١٨٥٩ ، وكانت آخر كلمة قالها قبل أن ينام ليلاً : « على أن أرتب وسادتى لليلة أخرى مرهقة .. ليت هذا كله ينتهى !! » . فى الصباح لم ينهض من النوم .. كأن كل هذا انتهى فعلاً .. ودفن فى مقبرة (سليبى هولو) الخاصة بالكنيسة الهولندية فى نيويورك ، كأنه اختار أن يكون قبره فى البلدة التى دارت فيها أهم قصصه .

دكتور أحمد خالد

الشيطان وتوم ووكر

على بعد أميال قليلة من بوسطون فى ماساتشوستس ، ثمة مدخل ضيق يتلوى عدة أميال فى قلب الريف ، وينتهى فى مستنقع كثيف الأشجار . على جانب هذا المدخل يوجد بستان جميل ، وعلى الجانب الآخر ترتفع الأرض بحدة عن حافة الماء لتشكل تلة عالية تناثرت عليها أشجار بلوط عملاقة عجوز .

تحكى القصص الغابرة أنه تحت واحدة من هذه الأشجار العملاقة يوجد كنز عظيم دفنه القرصان (كيد) . لقد كان المدخل يسهل جلب المال ليلاً فى قارب إلى قمة التل . وكان ارتفاع المكان يتيح نظرة شاملة تتأكد بها أنه ما من شخص يراقب ما يحدث ، بينما كانت الأشجار علامات ممتازة تسهل العثور على موضع الكنز ثانية ..

تضيف القصص أن الشيطان يشرف على تخبئة المال ، ويعتبر ذلك مسئوليته الخاصة .. على كل حال

من المعروف أنه يفعل ذلك مع الكنوز كلها خاصة إذا كان مصدرها إجراميًّا . مهما كان الأمر لم يعد (كيد) قط لاسترداد ثروته لأنه اعتقل فى بوسطون بعد هذا ، وسيق إلى إنجلترا ليشنق بتهمة القرصنة .

حوالى العام ١٧٢٧ عندما اجتاحت الزلازل (نيو إنجلند) ، كان يعيش شاب فقير تعس يدعى (توم ووكر) . كانت له زوجة تعسة مثله وقد بلغ منهما الفقر مبلغ أنهما كانا يخدعان بعضهما .. كانت تخبئ كل ما تقدر على وضع يدها عليه ، وكانت تسرق بيضة الدجاجة بمجرد نزولها .. كان زوجها يراقبها بحرص ليعرف ما تداريه عنه ، ولكم من معارك نشبت بينهما بسبب ما كانا يعتبرانه ملكية مشتركة .

كانا يعيشان في بيت بائس يوحى منظره بالجوع . ومن مدخنة البيت لم يخرج دخان قط .. وعلى بابهما لم يتوقف مسافر قط . كان حصان تعس بارز الأضلاع كأنها قضبان المشواة يرعى حقلاً تغطى فيه طبقة

واهنة من الطحلب حواف الصخور المشرشرة .. أحياناً كان يطل برأسه من فوق السور متوسلاً لعابرى السبيل كأنه يطلب من ينقذه من أرض المجاعة تلك .

كانت امرأة (توم) سليطة اللسان شرسة الطباع عالية الصوت قوية الذراعين ، وكان صوتها يسمع دومًا أثناء حرب الكلمات مع زوجها ، وكنت ترى على وجهه أحياناً علامات تدل على أن المعركة لم تكن كلامية فحسب . لكن لم يجسر أحد قط على التدخل بينهما .. فقط يفر من يسمع المشادات مهنئًا نفسه ـ إذا كان عزبًا ـ على عزوبته .

ذات يوم اتجه (توم) إلى مكان بعيد عن الدار ، فسلك ما اعتبره ممرًا مختصرًا عبر المستنقع . وككل الطرق المختصرة كانت اختيارًا عقيمًا . كانت نباتات الصنوبر والشوكران تغطى المستنقع وبعضها بارتفاع تسعين قدمًا ، مما جعله مظلمًا فى وسط النهر ومأوى لكل البوم فى المنطقة . كان مليئًا بالحفر التى غطتها

الأعشاب والطحالب مما يخدع المسافر ويجعله يقع فى الوحل الأسود ، كما كانت هناك برك راكدة حيث تعيش ثعابين الماء بينما ترقد جذوع الصنوبر نصف متعفنة نصف غارقة كأنها تماسيح غافية ..

راح (توم) يستكشف طريقه وسط الغابة المخادعة ، بين غصون الأشجار المتشابكة .. ومن آن لآخر يثير رعبه صراخ (مالك الحزين) أو صياح بطة برية تنهض من بركة قريبة . فى النهاية بلغ أرضًا صلبة تتوغل فى قلب المستنقع كأنها شبه جزيرة .

كانت هذه الأرض من قلاع الهنود الحصينة أثناء قتالهم مع المستعمرين ، هنا أنشئوا حصنًا اعتبروه لا يقهر وداروا فيه أطفالهم ونساءهم . لم يبق شىء من الحصن القديم ما عدا بعض الجسور التى غاصت لمستوى الأرض التى تحيط بها . وقد غطتها النباتات الكثيفة التى يتناقض لونها مع لون الصنوبر والشوكران الداكن المحيط به .

بلغ (توم ووكر) الحصن القديم فى وقت الغبشة ، فتوقف هناك ليلتقط أنفاسه . ما كان أحد سواه ليقف هنا لأن الناس اعتادوا أن يكرهوا هذه البقعة ، بسبب القصص التى تتوارد حولها منذ زمن حروب الهنود ، حيث قالت الإشاعات أن الهنود كانوا يقيمون صلواتهم هنا ويقدمون الأضحيات للأرواح الشريرة . لكن (توم وكر) لم يكن بالرجل الذى يشغل باله بأية مخاوف من أى نوع .

استراح على جذع شجرة ساقطة بعض الوقت وهو يصغى لصياح ضفادع الأشجار ، ويعبث بعصاه فى كومة تراب أمامه .. فبينما هو يفعل ذلك شارد الذهن اصطدمت عصاه بشىء صلب . أزاح كومة النباتات فيا للعجب لقد وجد جمجمة مهشمة استقر فيها فأس هندى .

وأظهر الصدأ على نصل الفأس أن زمنًا قد مر منذ وجهت ضربة الموت تلك . كانت لحظة عراك مفزعة تم فى هذا المكان منذ أعوام .

ركل الجمجمة ليسقط الغبار عنها وقال :

- « أف ! »

هنا دوى صوت أجش :

- « دع الجمجمة فى حالها !! »

رفع توم عينيه فرأى رجلاً أسمر عملاقًا يجلس أمامه مباشرة على جذع شجرة مقطوعة . أصابه الذهول لأنه لم يسمع الرجل يقترب كما أصابته الدهشة لأنه وجد أن الرجل لم يكن زنجيًا أو هنديًا . حقًا كان الرجل يلبس زيًا هنديًا خشنًا ويلف حول جسده حزامًا أحمر ، لكن وجهه ليس أسود وليس له لون النحاس لكنه داكن ملوث بالسخام ، كأنه يقضى فترات طويلة بين النيران وأدوات الحدادة . كان له شعر أسود خشن ينتصب فى كل الجهات ، وكان يحمل فأسًا فى يده .

وللحظات ظل يحدق عابسًا فى (توم) بعينين حمراوين كبيرتين .

ثم قال بصوت عميق خفيض :

ـ « ماذا تفعل فى أرضى ؟ »

قال (توم) :

ـ « هذه لم تعد أرضك كما أنها ليست أرضى .. إنها أرض (ديكون بيبودى) .. »

قال الغريب :

ـ « فليلعن (ديكون بيبودى) .. سوف تلحق به اللعنة ما لم يهتم بخطاياه أكثر وينس خطايا جيرانه .. انظر أيها الشاب لترى كيف يصير (ديكون بيبودى) .. »

نظر (توم) إلى حيث أشار الغريب فرأى واحدة من الأشجار العملاقة مورقة لكنها متعفنة فى القلب ، حتى أنها توشك على السقوط مع أول ريح . وعلى غصن الشجرة كتب اسم (ديكون بيبودى) . نظر حوله فوجد أن كل الأشجار العملاقة تحمل أسماء رجال مهمين فى

المستعمرة ، وأن تلك التى جلس عليها تحمل اسم (كرانشيلد) وهو رجل ثرى ذو نفوذ يستعرض ثروته بطريقة سوقية . ويقال سراً إنه جمع ثروته عن طريق المضاربة فى البورصة .

قال الرجل الأسمر وهو يزمجر فى انتصار :

ـ « إنه متأهب للحرق ! كما ترى لدى خزين ممتاز من الخشب للشتاء .. »

قال (توم) :

ـ « لكن بأى حق تقطع خشب (ديكون بيبودى) ؟ »

قال الآخر :

ـ « حق وضع اليد .. هذه الأرض كانت تخصنى قبل أن يضع واحد من جنسكم الأبيض قدمه عليها .. »

ـ « وهل لى أن أتجاسر وأسأل عن اسمك ؟ »

ـ « أوه .. إن لى أسماء عدة .. أنا الصياد المتوحش فى بعض البلدان ، والحفار الأسود فى بلدان أخرى ..

فى هذه الأصقاع يطلقون على (الحطاب الأسود) .. من أجلى خصص الرجال الحمر هذه البقعة ومن حين لآخر ضحوا برجل أبيض .. ولما كان جنسكم الأبيض قد أباد الرجال الحمر ، فأنا أتسلى برعاية المهرطقين وتجار العبيد وساحرات (سيلم) .. »

قال (توم) فى ثبات :

. ـ « لو لم أكن مخطئًا فأنت كذلك تُعرف بإبليس .. »

هز الرجل رأسه وقال :

ـ « في خدمتك .. »

كانت تلك بداية المقابلة حسب القصة القديمة ، برغم أنها مألوفة لدرجة تدفع للشك . من الطبيعى أن تفترض أن لقاء شخص عجيب كهذا فى هذا المكان المقفر لابد أن يهز أعصابك ، لكن (توم) كان قوى الشكيمة لا يخاف بسهولة ، وكانت حياته مع زوجته سليطة اللسان كفيلة بجعله لا يخاف الشيطان .

يحكى أنـه بعد هذه المقابلـة دارت بينهمـا محادثـة طويلة دافئة فـى طريق عودة (تـوم) لداره .. أخبره الرجل الأسمر بالمـال الوفير الذى دفنـه كابتن (كيد) تحت أشجار البلوط قرب المستنقع . كل هذا المال تحت أمره وسيطرته .. عـرض علـى (تـوم) أن يمنحـه هذا المـال لأنـه أظهر لطفًا نحـوه ، لكن لابـد من تحقيـق شروط معينة .

يمكن استنتاج هذه الشروط بسهولة برغم أن (توم) لم يعلنها قط .. لابد أنها كانت عسيرة لأن (توم) طلب وقتًا للتفكير ، وهو لم يكن بالرجل الذى يهتم بالتفاهـات مـا دام المـال فـى مرأى عينـه : عنـد حافـة المستنقع توقف الرجل .

سأله (توم) :

ـ « ما دليلى على أن ما قلته صحيح ؟ »

ـ « هذا هو توقيعى .. »

قالها الرجل وألصق إصبعه بجبين (توم) .. ثم توارى بين الأشجار الكثيفة وبدا كما خيل لـ (توم) أنه يهبط ويهبط ويهبط .. حتى توارى تمامًا فى الأرض .

حينا بلغ توم داره وجد علامة الإصبع المشتعل على جبينه ، وقد صار من المستحيل محوها .

أول ما أخبرته به زوجته هو وفاة (أبسالوم كراوننشيلد) مضارب البورصة الثرى .. لقد أعلن هذا فى الصحف مع العبارة المعتادة : « اليوم هلك رجل عظيم من بنى إسرائيل » .

تذكر (توم) الشجرة التى قطعها صديقه والتى أعدت للحرق .. فقال لزوجته :

ـ « فليحترق هذا اللص .. من يبالى ؟ »

الآن أدرك أن كل ما رآه وسمعه لم يكن وهمًا .

لم يكن مستعدًا للثقة بزوجته ، لكن هذا السر كان عسيرًا لذا أخبرها به . اشتعل جشعها لدى سماع

موضوع الذهب وأصرت على أن ينفذ زوجها شروط الرجل الغريب .. وبرغم أن توم لم يكن ممتنعًا عن بيع روحه للشيطان ، إلا أنه لم يكن مستعدًا لأن يعمل هذا لمجرد مجاملة زوجته . لهذا أبدى التمنع لمجرد المخالفة . ودارت بينهما مشاجرات كثيرة لكن توم ظل مصرًا على ألا يظفر باللعنة الأبدية لمجرد أن يرضيها .

هكذا قررت أن تتولى هى أمر الصفقة ، فإذا فازت بها أخذت المال كله لنفسها .

كانت من طراز زوجها الذى لا يخاف شيئًا ، لذا انطلقت نحو الحصن الهندى فى نهاية اليوم . غابت عدة ساعات وعندما عادت كانت متحفظة فى إجاباتها . تكلمت عن رجل قابلته فى وقت الغسق .. لكنه كان متجهمًا عبوسًا ولم يتفق معها على شىء .. قررت أن تذهب ثانية لاسترضائه بعرض خاص لكنها لم تحدد ما هو ..

فى الليلة التالية انطلقت للمستنقع وقد حشت منزرها بأشياء ، وظل توم ينتظر وينتظر بلا جدوى .. جاء منتصف الليل لكنها لم تظهر ..عاد الصباح فالظهيرة فالمساء لكنها لم تعد . بدأ توم يقلق على سلامتها خاصة أنها أخذت معها إناء الشاى الفضى والملاعق وكل شىء له قيمة ما . مر يوم آخر ويومان بلا زوجة .. بعبارة أخرى نقول إن أحدًا لم يسمع عنها ثانية ..

ماذا كان مصيرها ؟ هذا لا يعرفه أحد .. هناك كثيرون زعموا أنهم يعرفون .. وهى من الحقائق التى اختلطت على المؤرخين .. زعم البعض أنها ضلت طريقها وسقطت فى بركة وحل ، وقال آخرون فى قسوة أنها هربت بغنيمتها الثمينة .. وقال آخرون إن المضلل اقتادها إلى مستنقع وجدوا قبعتها تسبح فوقه . وللتأكيد قيل إن رجلاً أسمر يحمل فأسًا على كتفيه شوهد خارجا من المستنقع وفى يده حزمة ملفوفة فى منزر ، وقد بدا عليه الانتصار .

أقرب القصص للاحتمالية تقول إن (توم ووكر) قلق عليها لدرجة أنه راح يبحث عنها فى الحصن الهندى ، وقد راح يفتش المكان الكئيب طيلة عصر صيف حار لكن لا زوجة .. ناداها مرارًا لكنها لم تسمع .. فقط لبى النداء طائر (مالك الحزين) وحلق صارخًا ..

عند الأفق وفى ضوء الغروب إذ راح البوم ينعق ، شد انتباهه تحليق الغربان فوق جيفة عند شجرة سرو .. دقق النظر فرأى حزمة معلقة من أحد غصون الشجرة يقف جوارها نسر هائل كأنما يحرسها .

وثب فرحا وقد عرف أنه مئزر زوجته ، فلابد أنه يحوى تلك الكنوز التى أخذتها من البيت . وقال معزيًا نفسه :

ـ « فلنأخذ ممتلكاتنا .. ولسوف نتعلم كيف نعيش من دون المرأة .. »

إذ مشى للشجرة ، فرد النسر جناحيه وطار صارخًا فى ظلال الغابة . أمسك توم بالمئزر وفتحه لكن يا للحسرة ! لم يجد بالحزمة إلا قلبًا وكبدًا ..

هذا هو كل ما بقى من زوجة توم كما تقول أكثر القصص القديمة مصداقية . لابد أنها حاولت مساومة الرجل الأسود كما كانت تساوم زوجها ، وبرغم أن المرأة الشرسة يمكن أن تكون صنوًا للشيطان إلا أن حظها لم يكن حسنًا فى تلك المرة . ويبدو أنها ماتت بذات الشراسة لأنه كانت هناك قبضات من الشعر يبدو أنها انتزعتها من الحطاب . وكان توم يعرف براعة زوجته عن خبرة ، لذا هز كتفيه وقال لنفسه :

ـ « رباه .. لابد أن الشيطان العجوز عانى كثيرًا .. »

عزى توم نفسه عن فقد ماله وزوجته ، وشعر بنوع من الامتنان للحطاب الأسود الذى قدم له معروفًا . أراد أن يوطد معرفته به أكثر لكنه لم ينجح . إن الشيطان خجول لا كما يتصور بعض الناس .. ولا يأتى عندما تنادى اسمه بهذه البساطة .. لأنه لا يلعب إلا عندما يكون متأكدًا من النتيجة .

بعد فترة طويلة عندما التهبت لهفة توم بفعل التأخير ، وصار مستعدًا لقبول أى شىء يقربه من

الكنز ، قابل الرجل الأسمر ذات ليلة فى ثياب الحطاب المعتادة ، وهو يدندن نغمة ما . أصغى لعرض توم بلا مبالاة ثم واصل دندنة نغمته .

إلا أن توم استطاع بعد وقت أن يقنعه .. هناك شرط واحد لن نذكره لكننا نفهمه جيدًا ، وهو الشرط الوحيد الذى يحقق به الشيطان رغبات ضحاياه . لكن (توم) كان ممتنعًا عن عدة شروط أخرى . لقد أصر الشيطان على أن المال الذى يجده المرء عن طريقه لابد أن يكرس لخدمته .. لهذا أصر على أن يستثمر (توم) ماله فى التجارة السوداء .. بمعنى آخر كان عليه أن يملك سفينة لتجارة العبيد . لكن توم رفض هذا .. كان سيئًا فى كل شىء لكن الشيطان نفسه ما كان ليقنعه بأن يصير تاجر عبيد .

إذ وجد الشيطان أن توم ليس متحمسًا لهذا ، لم يصر عليه .. اقترح عليه أن يعمل مرابيًا .. إن الشيطان يحب زيادة عدد المرابين وينظر لهم باعتبارهم

رجالـه المميزين . لـم يعترض تـوم علـى هذا لأن هذا يناسب ذوقه .

قال الرجل الأسمر :

- « سوف تفتح متجر سمسار فى بوسطن الشهر القادم .. »

- « يمكن أن أبدأ غدًا لو أردت .. »

- « سوف تقرض المال مقابل فائدة ربوية ٢٪ شهريًا .. »

هتف توم :

- « رباه ! بل سأطلب ٤% »

- « سوف تقود التجار للإفلاس و تستولى على الصكوك العقارية .. »

صاح توم فى حماس :

« سوف أرسل بالتجار إلى الشيـ..... »

قال الشيطان :

ـ « أنت المرابى عن مالى إذن .. متى تريده ؟ »

ـ « هذه الليلة .. »

ـ « تم ! »

هكذا تصافح الرجلان وعقدا صفقتهما ..

بعد أيام جلس توم ووكر فى مكتبه للمحاسبة فى بوسطون ، وقد انتشرت سمعته كرجل جاهز المال يقرضه بنسبة ربح عالية . يتذكر الجميع أيام الحاكم (بلتشر) عندما انتشر الكساد وملأت البلاد فواتير الحكومة غير المدفوعة . كان جنون بناء المدن قد أصاب الناس ، وراح سماسرة الأراضى يجوبون البلاد بخرائط تحكى عن مدن وكنوز لا يعرف أحد مكانها .. باختصار نشبت الحمى بدرجة مروعة ، وراح الجميع يحلم بتكوين الثروات من لاشىء .. كانت النتيجة المعتادة هى أن الحمى راحت ، ووجدت البلاد نفسها

تئن تحت وطأة ما أنفقته ، ومر الناس بما يمكن تسميته بـ (أوقات عصيبة) .

فى هذا الوقت بالذات صار (توم) مرابيًا فى بوسطن .. امتلأ بابه بالعملاء .. المغامرين وذوى الحاجة .. المضاربين والسماسرة الحالمين .. باختصار كل من كان يحلم بالمال هرع إلى توم . وقد لعب توم ببراعة دور (الصديق عند الشدة) . وكانت شروطه تتناسب فى صعوبتها مع حاجة الطالب .. لهذا كان يعتصر عملاءه ببطء ثم يخرجهم من عنده وقد جفوا كقطعة الإسفنج .

هكذا راح يكوم المال ونمت ثروته . بنى لنفسه بيتًا واسعًا على سبيل التباهى ، لكنه ترك أكثره بلا أثاث على سبيل البخل . بل إنه اقتنى عربة فاخرة لكن الخيول التى تجرها كانت على شفا الموت جوعًا . كنت تسمع صرير العجلات غير المشحمة فتشعر أنها أرواح المدينين المساكين التى يعتصرها فى قبضته .

إلا أن توم بدأ يقلق .. لقد فاز بخيرات هذا العالم لذا بدأ يقلق على العالم الآخر .. راح يفكر فى ندم فى الصفقة التى أجراها ، وراح يفكر فى سبيل لخداع الشيطان والتلاعب بالشروط .

بدأ يتردد على الكنيسة ويصلى بصوت عال كأن الجنة يمكن اكتسابها بقوة الرنين . كان متشددًا فى الدين كما هو متشدد فى أمور المال ، وكان يراقب جيرانه بحرص ، كأنه كان يعتقد أن أية خطيئة عندهم تضاف لرصيده هو فى الجنة . بل إنه راح يطالب بإعادة تقاليد إعدام الكويكرز .. باختصار صار توم ردىء السمعة مثل ثروته .

وبرغم هذا كله كان توم يدرك يقينًا أن الشيطان سيطالب بحقوقه .. لذا راح يحمل إنجيلاً فى جيب معطفه ، وواحدًا على شكل لفافة فى مكتب المحاسبة .. وقد شوهد يقرأ فيه مرارًا حين يدخل الناس للاتفاق معه . عندها يضع عويناته على اللفافة ليحدد مكان توقفه ثم يبدأ فى إجراء صفقات الربا .

قالوا إن توم بدأ يجن فى أواخر حياته ، فلما شعر بقرب نهايته ابتاع لحصانه حدوات جديدة وسرجا ودفنه فى وضع مقلوب . لأنه تصور أن العالم سينقلب رأسًا على عقب وفى هذه الحالة سيجد حصانه فى وضع صحيح متأهبًا للركوب . على كل حال هذه القصة تخاريف عجائز فلو كان قد قام بهذا التصرف لكان نوعًا من التزيد كما تقص علينا القصة فيما يلى :

ذات عصر حار كانت عاصفة رعدية قادمة ، فجلس توم فى مكتبه بردائه الهندى الحريرى ، وكان على وشك أن يخرب بيت مضارب تعس الحظ .. توسل له سمسار الأراضى البائس أن يمنحه بضعة أشهر من التساهل . لكن توم رفض أن يمهل الفتى يومًا آخر .

قال سمسار الأراضى :

- « سوف يخرب بيت أسرتى .. »

قال (توم) :

ـ « الإحسان يبدأ بالمرء نفسه .. وعلى أن أعنى بنفسى فى هذه الأيام القاسية .. »

قال المضارب :

ـ « لكنك نلت الكثير من المال منى .. »

فقد توم صبره وقال :

ـ « فليأخذنى الشيطان لو كنت قد حصلت منك على ربع بنس .. »

هنا دوت ثلاث دقات على الباب .. فوثب ليرى من هناك .. رأى رجلاً أسود يمسك لجام حصان أسود يركل بأقدامه فى نفاد صبر .

قال الرجل :

ـ « تعال يا (توم) ! »

انكمش توم لكن بعد فوات الأوان .. فلم يسبق لخاطئ أن أخذ على حين غرة مثله .. لقد أخذه الرجل

الأسود بخفة كأنه طفل فوق ظهر الحصان ثم انطلق يرمح وسط العاصفة الرعدية . وضع الموظفون أقلامهم خلف آذانهم وهم يحملقون في المشهد من النوافذ . بعيدًا رحل توم وثوبه الأبيض يتطاير في الريح ، وحوافر الجواد تطلق الشرر كلما لمست الأرض . وكان الرجل الأسود قد اختفى .

هز مواطنو بوسطون الطيبون رءوسهم ، لكنهم كانوا قد اعتادوا الساحرات والعفاريت منذ أقاموا مستعمرتهم تلك ، لهذا لم يصبهم الهلع كما تتوقع . تم تعيين أوصياء على ثروة توم لكنهم لم يجدوا شيئًا .. كل صناديقه المليئة بالذهب وجدوها مليئة بنشارة الخشب .. وفي الإسطبل كان هيكلان عظميان بدلاً من جواديه .. واحترق بيته في اليوم التالي وصار رمادًا ..

تلك كانت نهاية توم ووكر وثروته الحرام .. فليحفظ كل المرابين هذه القصة عن ظهر قلب .

لا يشك أحد فى صدق هذه القصة ، فما زال بوسعك أن ترى تحت شجرة البلوط الحفرة التى استخرج منها كنز القرصان كيد .. ما زال بوسعك فى الليالى العاصفة أن ترى قرب الحصن الهندى شخصًا غامضًا على ظهر حصان يلبس ثوبًا من حرير هندى .. فلابد أنها روح المرابى المعذبة . وما زالت القصة تتردد فى مقولة شهيرة أقرب للمثل ، تسمعها حتى اليوم فى نيو إنجلند هى : (الشيطان وتوم ووكر) .

1824

الـزوجـــة

إن كنوز الأعماق ليست بالشــيء الثمين لـو قارنتهـا بالمباهج الخفية لرجل يحتويه حب امرأة .. إننـى لأشـم رائحة البركات حينما أدنو من البيت ، فما أطيب العطر الذى يفوح مـن الـزواج! العطر الـذى لا تفوقـه أزهـار البنفسج .. »

ميدلتــون

★ ★ ★

كم من مرة علقت فيها على الثبات والجلد اللذين تقاوم بهما النساء عثرات الحظ وصروف القدر .. تلك العثرات التى تحطم روح الرجال وتمرغهم فى الغبار ، يبدو أنها تستدعى كل قوى الجنس الناعم وتهب شخصياتهن قوة وجرأة حتى ليبلغن مبلغ السمو . لاشىء يؤثر فى النفس أكثر من أن ترى فتاة رقيقة اعتادت الضعف والاعتماد على الآخرين وقد صارت هى عون وملاذ زوجها فى وقت الشدة ، تقاوم بحزم كل صنوف المحن المريرة .

نعمة من الله هى تلك المرأة التى تعتمد على الرجل فى ساعاته السعيدة ، وتصير مأواه وسكناه فى ساعات الشدة .. تلتف كالكرمة حول طباعه الخشنة وتحمى رأسه من السقوط ، وتضم قلبه الكسير .

ذات مرة كنت أهنئ صديقًا لى امتلك أسرة ترابطت بعاطفة قوية ، فقال بحماس :

ـ « ليس لى أن آمل لك فيما هو أفضل من أن تظفر بزوجة وأطفال .. لو كنت ثريًا شاركوك ثراءك ، ولو لم

تكن كذلك خففوا عنك .. لقد لاحظت أنّ الرجل المتزوج إذا ألم بـه سوء الحظ ، أقدر من الرجل العزب على استعادة مكانته .. جزئيًا لأنه متأقلم على الكفاح بسبب ضروريات الحياة لهؤلاء الأحباء معدومى الحيلة الذين يعتمدون عليه .. والأهم أن هناك من يخفف عنه معاناته .. إن ثقته واحترامه بالنفس تتجدد من حقيقة أنه مهما كانت الحياة مذلة قاسية فى الخارج ، فإن فى بيته مكانا يمكن أن يجد فيه بعض الحب ويعامل كملك .. بينما الرجل العزب يمكن أن يتهدم بسرعة كبيت يتهاوى لأن أحدًا لم يسكن فيه .. »

هذة الخواطر تعيد للذهن قصة منزلية صغيرة كنت شاهدًا عليها . لقد تزوج صديقى الحميم (ليزلى) فتاة جميلة ذكية تربت بطريقة عصرية . لم تكن تملك ثروة .. هذا حقيقى .. لكن صديقى كان ثريًا وكان يحلم بأن يريها كل شىء جميل وغريب .. وقد قال لى : « سوف تكون حياتها كقصة خيالية من قصص الجنيات »

تناغمت اختلافات شخصيتيهما .. كان رومانسى الطابع وكانت هى مفعمة بالحياة والبهجة . ولقد

لاحظت مرارًا الإعجاب الصامت الذى يرمقها به ، وكيف وسط الإعجاب بها كانت عيناها تستديران له كأنها لا تطلب القبول والإعجاب إلا عنده ، وحين تنحنى على ذراعه لتستند كان عودها الرقيق يتناقض بشكل جميل مع قامته الرجولية الفارعة . كانت ترمقه بمزيج من الفخر الرقيق .. لم يحدث من قبل أن انطلق زوجان شابان فى درب الزواج المتكافئ المزهر مثلما حدث لهذين الزوجين .

كان من سوء حظ صاحبى أن جازف بضيعته فى مضاربات كبرى ، ولم يكن قد مر على زواجه أكثر من أشهر حتى انهالت عليه الكوارث وسلسلة من سوء الحظ ، ففقد الضيعة ووجد نفسه فى وضع شبه معدم . لفترة أبقى السر لنفسه وواجه الحياة بقلب محطم وسحنة مكفهرة ، وصارت حياته ألمًا لا ينتهى لكن أكثر ما آلمه هو حاجته إلى إبقاء ابتسامته أمام امرأته . فما كان ليقدر على أن يؤذيها بهذه الأخبار . إلا أنها استطاعت أن ترى بنظرة الحب الثاقبة أن هناك شيئًا ما على غير ما يرام .. لم تنخدع بمحاولاته السقيمة السخيفة للتظاهر بالسرور .

حاولت جاهدة بكل ما تملك من قدرات أن تعيده لجادة السعادة ، لكن ما نجحت فيه هو أن غرست السهم أكثر فى روحه . فكلما رأى حبها له كلما تعذب أكثر لفكرة أنه سيجعلها معدمة عما قريب .. إن هى إلا برهة وتختفى هذه البسمة عن هذا الوجه ، وتفنى الأغنية ، وسوف تثقل الهموم هذا القلب السعيد الذى يخفق بخفة فى هذا الصدر ، فيهوى لأسفل مثقلاً بهموم وتعاسة العالم .

ذات مرة جاءنى وحكى لى موقفه فى صوت قانط . فلما انتهى سألته :

- « هل زوجتك تعرف بهذا .. »

فانفجر فى دموع غاضبة ، وصاح :

- « بالله عليك .. لو كنت تشفق على بأى شكل فلا تذكر زوجتى .. إن التفكير فيها هو الذى يدفعنى للجنون .. »

قلت :

- « ولم لا ؟ سوف تعرف هذا عاجلاً أو آجلاً .. ليس بوسعك إبقاء الأمر سراً .. لربما عرفت الأمر بشكل

أقسى مما لو عرفته منك ، لأن رقة من نحبهم تخفف عنا أعتى الدوامات .. أضف لهذا أنك تحرم نفسك من لطفها ورفقها بك .. بل إنك تهدد الرابطة الوحيدة التى تجمع القلوب ببعضها : علاقة الفكر والعواطف غير المتحفظة .. إذ سرعان ما تدرك هى أن شيئًا يضايقك بينما الحب الحقيقى لا يقبل التحفظات .. إننا نشعر بقلة القيمة والإهانة عندما لا يسمح لنا بمعرفة أحزان من نحب .. »

ـ « يا صاحبى .. لكن أية ضربة سوف أوجهها لأحلام مستقبلها ! سوف أهوى بروحها إلى الأرض إذ أخبرها أن زوجها صار متسولاً ! أخبرها أن عليها ان تنسى كل مباهج الحياة الأنيقة ، وكل مسرات المجتمع .. لتغيب معى فى الفقر والنسيان » أخبرها أننى جذبتها من عالمها الذى كان بوسعها أن تحلق فيه للأبد ناعمة بالتألق والسعادة ، عندما كانت نورًا لكل عين ونبع إعجاب كل قلب .. كيف يمكنها أن تتحمل الفقر ؟ هى التى تربت على الترف .. كيف لها أن تتحمل الإهمال وهى التى كانت معبودة المجتمعات ؟ سوف يحطم هذا قلبها .. »

رأيت أن حزنه بليغ فتركته ينساب .. لأن الأسى يجد راحته فى الكلمات . فلما انتهت هذه النوبة وعاد لصمته الكئيب عدت أطرق الموضوع بلطف .. وألححت عليه فى أن يخبر زوجته بالموقف . هز رأسه فى حزن لكن بالإيجاب .

- « من الضرورى أن تعرف وبهذا تتخذ الخطوات اللازمة لمواجهة الظروف المتغيرة ، يجب أن تغير أسلوب حياتك .. لا تدع هذا يؤلمك .. أنا أعرف أنك لم تعتمد قط فى سعادتك على المظاهر .. لديك أصدقاء .. أصدقاء مخلصون لن تنحدر فى نظرهم لو أن منظرك أقل بهرجة .. ولست بحاجة لقصر كى تنعم بالحياة مع مارى »

صاح :

- « يمكننى أن أنعم بالحياة معها ولو فى زريبة مكشوفة ! يمكننى وأنا معها أن أتحمل الانحدار فى الفقر والتراب .. فليباركها الله »

وبكى وغاب فى حزن رهيف .

أمسكت بيده بحرارة وقلت :

- « صدقنى يا صاحبى .. سوف تفعل هى ذات الشىء معك .. بل سيكون هذا مصدرًا لفخرها وانتصارها .. سوف يستدعى هذا كل الطاقات الكامنة فى طبيعتها .. ولسوف يسرها أن تعرف أنها تحبك لذاتك .. فى قلب كل امرأة توجد نار ربانية تتوارى فى ضوء الترف .. لكنها تتوهج وتشتعل فى ساعات الضراء .. ما من رجل يعرف حقيقة المرأة التى فى كنفه .. ما من رجل يعرف أى ملاك نبيل هى حتى يجرب معها محن هذا العالم المضطرمة .. »

كان هناك شىء فى صدق تعبيرى وبلاغة كلماتى استطاع أن يستولى على مخيلة (ليزلى) . كنت أعرف أى تأثير أحدثته فى نفسه ، فرحت أقنعه بأن يعود لداره ويتحرر من أعباء قلبه المثقل .

يجب أن أعترف برغم ما قلته فإننى شعرت ببعض القلق بصدد النتيجة .. من يستطيع الاعتماد على تماسك إنسان كانت حياته حتى هذه اللحظة جولة بين

المسرات ؟ ربما تتمرد روحها المرحة على طريق الفقر المهين المظلم الذى صارت تراه فجاة أمامها .. إن الفقر والإفلاس كانتان غريبان على هذه الطبقة التى جاءت منها ..

باختصار لم أستطع أن أقابل (ليزلى) فى الصباح التالى من دون توجس . لقد أفشى لها السر .

- « وكيف تلقت الخبر ؟ »

- « كأنها ملاك ! بدا كأن هذا يريح عقلها ، لأنها طوقتنى بذراعيها وسألتنى إن كان هذا سبب تعاستى فى الفترة الأخيرة ؟ يا للفتاة المسكينة ! إنها لا تتصور قدر التغيير الذى سوف يطرأ على حياتنا .. لا تعرف شيئاً عن الفقر إلا فى صورة مجردة .. فقط قرأت عنه فى الشعر .. لم تشعر بالحرمان بعد ، ولا تشعر بأنها تفتقد مظاهر البهرجة .. فقط عندما نجرب الحرمان الحقيقى والإذلال سيكون هذا هو الامتحان الحقيقى .. »

قلت له :

ـ « لكن بما أنك قمت بالعمل الأصعب فمن الخير أن يعرف العالم كله بالخبر .. قد يكون كشف السر مؤلمًا .. لكنها تعاسة واحدة تنتهى سريعًا بدلاً من انتظارها فى كل لحظة .. ليس ما يحرج الرجل المفلس هو الفقر ولكن الادعاء . الصراع بين عقل متغطرس وجيب خاو .. فلتملك الشجاعة كى تظهر فقيرًا أمام الناس .. جرد الفقر من لدغته .. »

وجدت أن (ليزلى) متأهب لهذه النقطة .. فلم يكن يحتفظ بكبرياء زائفة بهذا الصدد ..

بعد أيام زارنى ذات أمسية ، وكان قد باع بيته وسكن فى كوخ بسيط فى الريف يبعد عن المدينة أميالاً . وقد قضى يومه يشحن ما بقى عنده من أثاث على الكوخ . لقد باع كل شىء ما عدا (الهارب) الخاص بزوجته .. لم يستطع بيع هذا لأنه يرتبط بها بشدة وبقصة حبهما .. من أعذب لحظات زواجه تلك اللحظات التى كان ينحنى فيها عليه ويصغى لغنائها العذب ..

كان فى طريقه للكوخ حيث كانت زوجته ترتب كل شىء .. كنت مهتمًا بمعرفة تطورات حياته الزوجية ، وقد طلبت أن أصحبه لداره بما أنها كانت ليلة معتدلة الطقس .

كان منهكا بفعل مجهود النهار وإذ مشى للكوخ غرق فى تأمل كئيب .

قال متنهدًا :

- « يا (مارى) المسكينة ! »

سألته :

- « ماذا عنها ؟ هل حدث لها شىء ؟ »

قال وهو يلقى علىّ نظرة نافدة الصبر :

- « هل من الهين عليها أن تسجن فى كوخ حقير ؟ أن تكدح فى مسكنها الجديد الوضيع زرى الهيئة؟ »

- « وهل أنضجها هذا التغير ؟ »

ـ « نضج ؟ ليست إلا قطعة من العذوبة والمرح .. يبدو لى أنها فى أفضل حالاتها المعنوية منذ عرفتها .. إنها كل الحب والحنان والراحة »

صحت :

ـ « فتاة جديرة بالإعجاب .. وأنت تعتبر نفسك مسكيناً .. أنت لم تكن بهذا الثراء من قبل يا صاحبى .. لم تعرف من قبل كم أن هذه الفتاة ممتازة بلا حدود .. »

ـ « آه .. لكن ليت اللقاء الذى سيتم فى الكوخ ينتهى .. عندها سأشعر بالراحة .. لكن هذا أول يوم لها مع المعاناة الحقيقية .. هذا أول يوم تقضيه فى ترتيب ذلك المتاع المزرى .. للمرة الأولى تجهد فى العمل المنزلى ، وللمرة الأولى تجد نفسها فى بيت خال من أى شىء مبهرج بل من أى شىء ضرورى .. لابد أنها تجلس الآن منهكة تفكر فى مستقبل الفقر الذى ستواجهه »

كان كلامه معقولاً جداً حتى أننى لم أستطع الاعتراض ، ومشينا فى صمت .

انحرفنا من الطريق الرئيس إلى زقاق ضيق ، تحيط به الأشجار حتى لتعطيه جواً عاماً من العزلة . ورأينا الكوخ .. كان متواضعًا تمامًا بالنسبة لما تتخيله القصائد الرعوية ، لكن برغم هذا كانت له لمحة ريفية جميلة . لاحظت كذلك عدة أصص من الأزهار وضعت بشكل أنيق حول الباب والنافذة الزجاجية . وكان هناك باب صغير ، وإذ دنونا سمعنا صوت موسيقا فأمسك (ليزلى) بذراعى ، وصمتنا وأصغينا .. كان هذا صوت (مارى) يغنى بطريقة مؤثرة فى بساطتها ، ولطالما أغرم زوجها بهذه الطريقة .

شعرت بيده ترتجف فى ذراعى .. ثم دخل ليصغى بشكل أوضح .. أصدرت قدماه صوتًا على الأرض المكسوة بالحصى ، ونظر لنا وجه قسيم من النافذة ثم توارى ..

سمعنا صوت خطوات وهرعت (مارى) تلقانا وقد ارتدت ثوبًا ريفيًا أبيض أنيقًا ، وهنك أزهار فى شعرها .. لم أرها قط بهذه النضارة وتلك السعادة ..

صاحت فى :

ـ « واعزيزى (جورج) .. يسعدنى أنك أتيت .. لقد ظللت أرتقبك .. لقد أعددت مائدة تحت شجرة فى الزقاق خلف الكوخ ، وجمعت بعض الشليك (الفراولة) الشهية لأنى أعرف أنك مغرم بها .. ولدينا قشدة ممتازة .. كل شىء رائع هنا .. »

وتأبطت ذراع زوجها ، ونظرت فى وجهه بحب ..

لقد هزم ليزلى المسكين تمامًا ، وضمها لصدره وعجز عن الكلام .. وإن تدافعت الدموع لعينيه . وفيما بعد قال لى إنه برغم أن أموره انتعشت فيما بعد فإنه لم يعش قط لحظة من السعادة الخالصة مثل هذه .

* * *

أسطورة سليبى هولو

وجدت هذه القصة بين أوراق المرحوم (ديدرتش نيكربوكر) :

فى قلب واحد من تلك التجاويف الفسيحة الواقعة على الساحل الشرقى لهدسون ، حيث يتسع النهر الذى أطلق عليه الملاحون الهولنديون (نابان زى) ، وحيث كانوا بحصافة يطوون شراعهم ويطلبون عون القديس (نيكولاس) .

عندما يعبرون تلك البقعة ، توجد مدينة أو مرفأ حضرى يطلق عليه البعض اسم (جرينزبيرج) لكنه يسمى على الأكثر شيوعًا (المدينة القطرانية) . قيل لنا إن هذا الاسم أطلقته قديمًا ربات البيوت فى الريف المجاور ، بسبب عادة أزواجهن أن يتسكعوا فى حانة القرية فى أيام السوق .

ليكن الأمر كذلك .. فأنا لست متأكدًا من هذه المعلومة لكننى أسجلها فحسب توخيًا للدقة والأمانة .

على مسافة غير بعيدة من القرية ، ربما على بعد ميلين ، يوجد واد صغير بين التلال العالية ، وهو من أكثر أماكن العالم هدوءًا . هناك جدول صغير يمر عبره

له خرير يكفى لجعلك تنعس .. فلا تجد صوتًا آخر إلا دقات نقار الخشب يخرق الصمت من حين لآخر .

أتذكر أننى في مراهقتى قمت بأول حملة صيد سناجب فى بستان من أشجار الجوز يظلل جانب ذلك الوادى . كنت قد دخلته عصرًا وأثار دهشتى صوت طلقة بندقيتى التى حطمت الصمت المقدس وطال صوتها وتردد بوساطة الأصداء الغضبى ..

لو أننى حلمت يومًا بمأوى أتوارى فيه عن العالم وتفاهاته ، وأحلم بعيدًا عن حياتى المضطربة ، فلا أعرف موضعًا أفضل من هذا الوادى .

بسبب هذا الهدوء الخامل للمكان ، وطبيعة سكانه الذين ينحدرون من أصول المستوطنين الهولندية الأولى ، أطلق على هذا المكان المنعزل اسم (سليبى هولو) أى (الوادى النعسان) .. وأطلق على سكانه اسم (صبية سليبى هولو)(*) .. يبدو أن هناك تأثيرًا خاملاً حالمًا يسيطر على كل شىء ويغزو جو المكان . قيل إن المكان مسحور

(*) Hollow لها عدة معان منها الثقب والفراغ والوادى والتجويف .. أعتقد أن (الوادى) أقربها للمراد هنا .. عامة لم أترجم الاسم لأن الأسماء لا تترجم ..

بفعل طبيب ألمانى فى أيام المستعمرة الأولى. قال آخرون إن زعيمًا هنديًا أو ساحرًا كان يحتفظ بتعاويذه هنا قبل أن يكتشف السيد (هنديك هدسون) المكان.

المؤكد أن المكان ما زال يحتفظ ببعض القوى السحرية التى تسيطر على عقول البسطاء، مما يجعلهم يمشون فى حالة حلم يقظة مستمر. إنهم يؤمنون بكل الخوارق ويمرون بالكثير من الرؤى ويرون مناظر غريبة ويسمعون موسيقا فى الهواء.

إن الجيرة تعج بقصص محلية وبقاع مسكونة وإيمان بالخرافات.. هنا تطير النيازك وتسقط النجوم أكثر من أى مكان آخر فى البلاد.. ويبدو أن الكوابيس تعشق هذه المنطقة كذلك.

إلا أن الروح المسيطرة على هذه البقعة المسحورة هى شبح بلا رأس يمتطى حصانا.. يقال إنه شبح جندى من المرتزقة أطارت قذيفة مدفع رأسه فى معركة مجهولة أثناء حرب الاستقلال. ويقال إن الريفيين يرونه ينطلق فى الظلام على حصانه كأنما

يحمله جناحا الريح ، وهو لا يظهر فقط فى الوادى بل يرتاد الطرق المجاورة ، خاصة قرب كنيسة ليست بعيدة عن هنا ..

يزعم بعض الثقاة الذين يتحرون الدقة فى مصادر معلوماتهم أن جسد المحارب مدفون فى فناء الكنيسة .. ويزعمون أن الفارس يزور موقع المعركة ليلاً فى بحث أبدى عن رأسه .

ويقال إن السرعة التى يعبر بها الوادى كأنه إعصار منتصف الليل تعود لكونه تأخر ويرغب فى العودة إلى فناء الكنيسة قبل الفجر .

هذا هو ملخص القصة التى ألهبت خيال القصاصين فى بقعة الظلال هذه .. والقصة تحكى جوار كل مدفأة فى البلاد .. حيث يطلقون على الشبح اسم (فارس سليبى هولو مقطوع الرأس) ..

من الملاحظ أن الظواهر البصرية التى أحكى عنها ليست مقصورة على السكان الأصليين ، لكنها تستقر فى لا وعى أى شخص يقيم هناك لفترة من الوقت .

مهما بلغت درجة تنبههم قبل دخول هذه المنطقة الناعسة ، فلابد أن يعبث بهم التأثير السحرى مع الوقت ويرون الأحلام والرؤى ..

إننى لأذكر هذه البقعة الآمنة بالخير لأنه فى هذه الوديان الهولندية الهادئة الواقعة على تخوم نيويورك ، ظلت العادات ثابتة وسط طوفان الهجرة الذى لا يكف عن إحداث تغيرات متوالية فى هذا البلد القلق .. إنه يمر بها فلا يلاحظه أحد .

إنهم أقرب إلى بقاع الماء الهادئ المجاورة لتيار سريع .. وبرغم أن أعوامًا عديدة قد مرت على منذ مشيت فى ظلال (سليبى هولو) الناعسة ، فإننى لأتساءل عما إذا كنت سأرى تلك الأشجار ونفس الأسر الغافية فى ظلالها .

فى هذا الموضع من الطبيعة وفى حقبة بعيدة من تاريخ أمريكا ـ حوالى ثلاثين عامًا ـ عاش رجل فاضل اسمه (إيشبود كرين) ، عاش لفترة مؤقتة فى (سليبى هولو) بغرض تعليم أطفال المنطقة . كان من سكان

(كونكتيكت) الأصليين ، وهى مدينة طالما أمدت الاتحاد الأمريكى برواد الفكر كما أمدته برواد الغابات .. إنها تصدر كل عام أبناءها من حطابى الحدود والمعلمين .

وكان لقب (كرين) لا يناسب شخصه .. كان فارع الطول لكنه نحيل ضيق الكتفين وله يدان تتدليان أميالا من كميه حتى تصلحا جاروفين .. وكنت تشعر أن مظهره لا يتفق مع بعضه . كان رأسه صغيرًا مسطحا وله أذنان عملاقتان وعينان خضراوان زجاجيتان ، وله أنف غريب حتى ليبدو كأنه ذلك الديك الذى يقف على مغزل ليحدد اتجاه الريح . إن تراه يمشى جوار الجبل فى يوم عاصف وثيابه تتطاير من خلفه ، فلربما حسبته مجاعة هبطت على الأرض أو فزاعة فرت من حقل قمح .

كانت مدرسته بناية وطيئة بها غرفة واحدة كبيرة من ألواح الخشب ، وقد غطيت النوافذ بأوراق من الكتب القديمة . وكان يغلقها فى أوقات العطلة بطريقة تتيح للص أن يدخل بسهولة لكنه سيجد عسرًا فى الفرار .

وهى فكرة غريبة خطرت للمهندس المعمارى (يوشت فان هاوتن) ..

كانت المدرسة تقع فى منطقة مقفرة لكنها جميلة ، أسفل تل تكسوه الغابات وثمة نهير يجرى قربها وشجرة بتولا هائلة الحجم إلى جانبها . من هنا يمكن أن تسمع صوت غمغمة التلاميذ وهم يطالعون كتبهم فى يوم صيف خمول ، فكأنه أزيز النحل فى خلية .

يقاطع هذا الصوت من حين لآخر صوت السيد الآمر بلهجة تهديد أو أمر .. أو صوت عصاه المرعب وهو يلاحق أحد التلاميذ المتسكعين على طريق المعرفة المزهر . الحقيقة أنه كان رجلاً حى الضمير وكان يحمل فى ذهنه دومًا الحكمة الذهبية : « تخل عن العصا يفسد الطفل » .. وبالتأكيد لم يفسد أى واحد من تلاميذه .

على كل حال لم أتصوره قط كواحد من نظار المدارس القساة الذين يجدون سعادة فيما يقومون به ، بل على العكس كان يطبق العدالة بتمييز ويرفع العبء

عن ظهور الضعفاء من طلابه ، ويضعه على الأقوياء منهم . وكان يتبع عقابه دومًا بأن يطمئن الصبى المراهق بأنه سيتذكر هذا العقاب ويشكره عليه .

وحينما كانت ساعات المدرسة تنتهى ، كان هو رفيق لعب وصاحب الأولاد الأكبر سنًا .. وفى عصر الإجازات كان يوصل الصغار سنًا لبيوتهم خاصة من لهم أخوات جميلات أو لهم أمهات طيبات يحتفظن ببعض ما لذ وطاب .

فى الحقيقة كان عليه أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع تلاميذه ، لأن دخل المدرسة كان قليلاً ، ولا يكاد يفى باحتياجاته اليومية من الخبز .. فقد كان شرهًا وبرغم نحوله كانت له قدرة ثعبان (الأناكوندا) على البلع . وطبقًا لعادة الريف فى هذه الأصقاع كان يدعى للطعام فى بيوت الصبية الذين يعلمهم . بل كان يدعى للإقامة أحيانًا لمدة أسبوع ، فكان يذهب هناك وقد جمع كل ممتلكاته الدنيوية فى منديل قطنى .

لم يكن هذا يسبب عبئًا كبيرًا على جيوب الريفيين البسطاء حتى لو اعتبروا مصاريف المدرسة مرهقة والناظر عالة عليهم ، فقد كان يعرف كيف يكون مفيدًا ومقبولاً .

كان يساعد الفلاحين فى أعمال الفلاحة السهلة ، ويكوم معهم القش ويصلح الأسوار ويأخذ الخيول للماء ، ويقود الأبقار من مراعيها ، ويقطع الأخشاب للمدفئة .

كان كذلك يزيح جانبًا كل الكبرياء الذى يتعامل به فى مملكته الصغيرة .. المدرسة .. ويصير لطيفًا بطريقة مدهشة . كان يكسب رضا الأمهات عن طريق تدليل أطفالهن ، وخصوصًا أصغرهم .

وكما يفعل الأسد مع الحمل ، كان يضع صبيًا على حجره أو يهز مهد رضيع بقدمه عدة ساعات متواصلة . بالإضافة لمواهبه الأخرى كان يقود الصبية أثناء غناء المزامير فينال شلنات كثيرة براقة .

وكان يحب أيام الآحاد أن يجلس أمام الكنيسة مع فريق من الصبية المختارين ، حيث ينجح تمامًا فى أن ينتزع سعف المجد من خورى الكنيسة . وكان صوته هو الأعلى أثناء الغناء ، وكنت تسمع تهدجه المميز ربما على مسافة نصف ميل فى صباح أحد هادئ ..

هكذا بمزيج من المراوغة والتحايل استطاع هذا المربى الفاضل أن يعيش ..

كان الناظر ذا قيمة ما بالنسبة للفتيات فى الجيرة ، باعتباره رجلاً مهذبًا ذا ذائقة عالية ويختلف عن عشاق الريف الخشنين ، وكانوا يعتبرونه الشخص الوحيد الذى يلى خورى الكنيسة فى العلم .

لهذا كان ظهوره يسبب اضطرابًا على موائد الشاى فى المزارع .. ومن أجله كانت توضع صحون إضافية من الحلوى والكعك أو ظهور براد شاى فضى بالصدفة .

لهذا كان رجلنا ينعم بابتسامات كل آنسات الريف . ولهذا كان يظهر بينهن فى ساحة الكنيسة ويجمع لهن العنب من الكروم البرية التى تلتف حول الأشجار ، ويسمّع عن ظهر قلب كل المكتوب على شواهد القبور لتسليتهن . أو يمشى الهوينى مع سرب منهن على ضفاف البركة بينما تمشى الخجولات منهن فى وداعة فى مؤخرة الموكب ، ويحسدن من تفوقهن ذكاء وجرأة ..

كانت حياته مليئة بالحركة من مكان لآخر لذا كان مجلة متنقلة تحوى كنزًا من الشائعات والقيل والقال من بيت لبيت .. ولهذا كان مرآه يبعث الرضا فى النفوس . وكانت النسوة يعتبرنه رجلًا واسع العلم خبر العالم ، وكان يفهم كتاب (كوتون ماثر)(*) المدعو (تاريخ السحر فى نيو إنجلند) الذى كان يؤمن بأكثر ما كتب فيه .

فى الواقع كان خليطا من السذاجة والخبث .. وكانت له شهية مذهلة لكل ما هو غير عادى وقدرة عجيبة على هضمه ، وقد نمت الموهبتان نتيجة حياته فى هذه البقعة المسحورة . لم تكن هناك قصة غريبة أكثر من اللازم على ملكة تصديقه .. وكان مما يسره بعد انتهاء ساعات الدرس أن يستلقى على العشب المحيط ببناية المدرسة ويدرس بدقة حكايات (ماثر) القديمة المخيفة حتى يجعل الغسق الصفحة مجرد ضباب أمام عينيه . ثم يخترق المستنقع والغابة قاصدًا بيت الفلاح الذى يؤويه ، بينما يداعب خياله كل صوت من الطبيعة فى هذه الساعة المسحورة . صيحة ضفدع الأشجار ونذير

(*) من خبراء صيد الساحرات المعروفين وقد قتل عددًا كبيرًا منهن ، كما أن له كتبًا شهيرة فى الموضوع .

العاصفة ونعيق البومة .. وصوت أجنحة الطيور الخائفة فى أعشاشها .. ونباب النار الذى يضىء بقوة حيث يوجد ظلام ، كل هذا كان يثير توتره .. وعندما تأتى خنفسة حمقاء محلقة نحو وجهه فإن المسكين كان يوشك على الاستسلام معتقدًا أن ساحرة تضع علامتها عليه .

كانت طريقته الوحيدة للشعور بالحماية هى أن يغنى مزامير داود ، فكان أناس القرية الطيبون يرتجفون وهم جالسون على عتبات بيوتهم إذ يسمعونه يترنم بصوت أخنف عبر الهضبة البعيدة .

من المصادر الأخرى لمتعه المفزعة كان أن يمضى ليالى الشتاء الطويلة مع العجائز الهولنديات إذ يجلسن يطرزن جوار النار ، مع تفاح يُشوى على المدفأة .. ويصغى لقصصهن عن الأشباح والعفاريت . عن البيوت المسكونة والبحيرات المسكونة والجداول المسكونة والغابات المسكونة .. وبخاصة قصص الفرسان مقطوعى الرءوس أو (مرتزق هولو الراكض) كما كن يسمينه .

بالمثل كان يسعدهن بقصصه عن الساحرات والعلامات المقلقة والأصوات التى عرفتها أيام (كونكتيكت) الأولى. ويخبرهن بتفاصيل عن النيازك الهاوية وبالحقيقة المفجعة أن العالم يدور حول نفسه، وأنهن يقضين نصف حياتهن مقلوبات لأسفل!

على أنه مهما بلغت متعة هذه الاجتماعات فإن هذه المهمة كانت تتبدد أثناء رحلة العودة لبيته فى الظلام .. كم من أشباح مخيفة كانت تعترض طريقه وسط الضوء الشبحى الغامض لليل الشتاء! كم من ضوء غريب جاء من نافذة لا يعرف مكانها! كم من مرة أثار هلعه جذع شجرة كساها الثلج اعترض طريقه كأنه عفريت ملتف فى ملاءة!! لكم ارتجف ذعراً من صوت خطواته على قشرة الجليد!

يخشى النظر إلى ما وراء كتفه حتى لا يرى كينونة غريبة تدنو منه» ..

ولكم أثار هلعه صوت الريح من خلفه معتقداً أن هذا هو (مرتزق هولو الراكض) فى غزوة من غزواته الليلية!

كل هذه كانت مخاوف ليلية .. أشباح عقل يمشى فى الظلام .. وبرغم أنه رأى الكثير من الأشباح فى حياته ورأى الشيطان فى أكثر من شكل ، إلا أن ضوء النهار كان ينهى هذه الشرور جميعًا .. وكان بوسعه أن ينعم بحياته برغم الشيطان وكل مخلوقاته ، لو لم يعترض طريقه كائن أشد خطرًا على الفانين من الأشباح والعفاريت وكل جنس الساحرات .. هذا الكائن كان امرأة .. .

بين طالبات الموسيقا اللاتى يحتشدن ليلة الأحد كل أسبوع كى يتلقين تعليمات إنشاد المزامير ، كانت (كاترينا فان تاسل) .. الابنة الوحيدة لمزارع هولندى ثرى . كانت فى الثامنة عشرة نضرة متوردة الخدين كأنها خوخة فى بستان أبيها .

كانت شهرتها واسعة ليس لحسنها فقط بل لثروتها ، فقد كانت غنوجا فى ثوبها الذى يجمع بين الطراز العتيق والموضة الحديثة ، وكانت تتزين بذهب خالص جلبته جدة جدتها من (سار) ..

كان (إيشبود كرين) يملك قلبًا ساذجا مرهفًا نحو الجنس الآخر ، فلا عجب أن الحسناء راقت له على الفور .. خاصة بعد ما زار بيت أبيها ..

كـان (بـالتوس فـان تاسـل) العجوز نموذجـا لفـلاح طلق لطيف الطبـاع راض عن الدنيا ، لكنـه لم يرسل عينيه أو عقله قط خارج حدود مزرعته .

كان راضيًا عن ثروته لكنه ليس فخورًا بها .. وكـان حصنه يقع على ضفاف نهر (هدسون) فـي واحد من تلك الأماكن الخضراء الظليلة التي يولـع بها الفلاحون الهولنديون . كـانت شجرة دردار ترسل ظلالها فـوق البيت ، وعلـى مستوى منخفض منـه نـافورة تتصاعد منها المياه العذبـة ، وجوار البيت كان مخزن حبوب يمكنه أن يفي بحاجات كنيسة كاملـة .. وقد بدا أن كل باب ونافذة فيه يوشك على الانفجار بكنوز المزرعة . وكـانت آلـة الدريس تعمـل بـلا انقطـاع مـن الصبـاح للمساء ..

من حين لآخر تـرى صفوفًا من الحمـام ومن الإوز الأبيض كالثلج يسبح في بركة قريبة ، والديكة الروميـة تجول عبر فناء المزرعة . بينما يتململ دجاج (غينيـا) كأنـه حشد مـن زوجـات ملولات .. وعلـى بـاب الجرن

يقف ديك عملاق بتلك الوقفة التى هى مزيج من زوج ومحارب وسيد مهذب يؤذن فى غرور ورضا عن النفس .. ثم ينادى زوجاته وأطفاله فى كرم نفس كى يستمتعوا باللقمة التى اكتشفها .

كان لعاب المربى الفاضل يسيل وهو ينظر لكل هذا الثراء ، وراح يتخيل كل خنزير يراه مشويًا وقد امتلأت بطنه بالسجق ، ووضعت تفاحة فى فمه ، والحمام قد أخلد للنوم وغطى بالخبز ، والبط يتزاوج مستريحا فى الأطباق وسط الكثير من عصيدة البصل ..

كان (إيشبود كرين) يتخيل هذا كله ، وكان يقلب عينيه الخضراوين فى المروج الثرية وحقول القمح والشعير وبساتين الفاكهة التى تحيط ببيت (فان تاسل) .. وفى الوقت ذاته يرتجف قلبه حنينًا للآنسة التى سترث كل هذا . يحلم بتحويل كل هذه الثروات إلى مال يتم استثماره فى الأراضى البرية .. وتخيل عربة تجلس عليها كاترينا مع أطفالها بينما يتقدم هو الركب بجواد مطهم قاصدًا كنتكى أو تنيسى أو يعلم الله أين !

حين دخل البيت رآه مترفًا مفروشًا علـى طريقـة المستوطنين الهولنديين الأوائل .. كل شيء كـان ثريًـا يعد بإمكانات هائلة .. لكـن سلامه النفسى تلاشـى ولـم يعد يفكر إلا فى السبيل للفوز بابنة (فـان تاسل) التـى لانظير لها .. لكن الصعاب التى كانت فى طريقـه كانت تفوق تلك التى واجهت فـارس الأساطير الـذى لـم تكن لديه مشـاكل إلا مواجهـة العمالقـة والسحرة والتنـانين وغيرهم مـن الخصوم سـهلى الهزيمـة ، وكـان عليـه اجتياز بوابات من الحديد والنحاس حتى يصل للقلعـة ، حيث سجنت حبيبتـه .. كل هذا حققـه بالسـهولة التـى يقطع بها المـرء كعكـة رأس السنة .. وبالطبع أعطتـه الحسنـاء موافقتهـا كشـىء مفـروغ منـــه . بالنسـبة لـ (إيشبود) كان عليه أن يصل لحسنائه عبر غابة مـن الدلال والنزوات هى دائمًا غاية فى الصعوبة والتعقيـد ، وعليه أن يواجه منافسين حقيقيين مـن لحم ودم . كـل المعجبين الذين يحاولون اقتحام قلبها ويراقبون بعضهم البعض بحذر .. ويمكن أن يتحدوا فـى أيـة لحظـة إذا ظهر منافس جديد .

بين هؤلاء كان أكثرهم شناعة واحد يدعى (إيراهام) أو حسب الاختصار الهولندى (بروم فان برونت) .. بطل الريف الذى تدوى أخبار قوته وبطولاته .. كان عريض الكتفين مرن الجسد له شعر أسود قصير مجعد ، وله مظهر ضاحك متعجرف جعل الناس يطلقون عليه (بروم بونز) .. كان شهيرًا ببراعته فى الفروسية يسيطر على الحصان كأنه من التتار .. كان الرابح فى كل سباق خيول وكل مصارعة ديكة ، وهو الفائز فى كل مشاجرة بقوته الجسدية . كان متأهبًا فى أى وقت للمشاجرة أو حفلات السمر لكنه لم يكن سيئ النية ، وكان ثمة نوع من الظرف فى خشونته . معه ثلاثة أو أربعة من الأتباع الذين يتخذونه نموذجا لهم .. ويجوبون الريف بحثًا عن أية فرصة للشجار أو المرح .

وفى البرد كنت تميزه بقلنسوة صوفية يتدلى منها ذيل ثعلب يراها الناس من بعد . وكان بوسعك أن تسمع حوافر خيولهم خارج المزرعة ليلاً وهم يتصايحون كأنهم ركب من (الدون كيشوتات) .. فكانت النسوة

يصحون من نومهن وينتظرن حتى يخفت الضجيج فيقلن :

ـ « آه .. هذا (بروم بونز) وعصابته ! »

وكان الجيران ينظرون له بمزيج من الرهبة والإعجاب وحسن النية .. وعندما تحدث أية عركة في الجوار كانوا يهزون الرءوس ويؤكدون أن (بروم بونز) طرف فيها .

اختص هذا الرجل (كاترينا) لفترة بتودده الأخرق الفظ ، وبرغم أن ملاطفاته كانت أقرب إلى ملاطفات دب ، لكن كان يقال همسًا أنها لم تخذل آماله تمامًا ..

بالطبع كانت ملاطفاته وعروضه إشارات للمنافسين كي يتراجعوا ، ولما رأى الناس حصانه مسرجا إلى سياج مزرعة (فان تاسل) في ليلة أحد ، أدركوا بما لايقبل الشك أن سيده يطارح الفتاة الغرام .. فانصرف الحالمون في قنوط وانطلقوا للحرب في جبهات أخرى .

كان هذا هو الخصم الرهيب الذى يجب على (إيشابود) أن يواجهه .. وبالنظر إلى الموقف نجد أن رجلاً أشجع منه كان سيجبن من المنافسة ، ورجلا أعقل منه كان سييئس .. لكنه كان بطبعه خليطا من المرونة والمثابرة وكان قادرًا على الانحناء لكنه لاينكسر أبدًا . ينحنى مع الضغط لكن إذ يزول هذا يستقيم ويشمخ برأسه .

كان من الجنون أن يقف فى الميدان بوضوح أمام منافسه ، لهذا راح يدبر خططه فى هدوء وخلسة .. وبصفته مدرس غناء راح يزور المزرعة بانتظام ، وإن لم يشكل له الأبوان مشكلة لأن (فان تاسل) كان رجلاً بسيطا يحب ابنته ربما أكثر من غليونه ، وكان يسمح لابنته بحريتها . وكان لدى زوجته أعباء كافية فى أعمال البيت والعناية بالدواجن ، وكانت تقول إن الإوز والدجاج كائنات حمقاء لابد من مراقبتها ، بينما الفتيات كائنات عاقلة يمكنها العناية بنفسها . لهذا كان (إيشابود) يأخذ راحته عند شجرة الدردار أو يمشى مع الفتاة فى وقت الغسق تلك الساعة المفضلة لدى العشاق .

أعترف أننى لا أعرف كيف يفوزون بقلوب النساء ، فلطالما اعتبرت هذه الأمور ألغازًا جديرة بالإعجاب . يبدو أن لكل امرأة بابًا أو نقطة ضعف ، وبعضهن لهن ألف طريق .. من الممتع دائمًا أن تصل إلى الطراز الأول لكن المثير للإعجاب فعلاً أن تحتفظ بالطراز الثانى ، لأن الرجل يجد عليه وقتها أن يدافع عن كل باب وكل نافذة فى قلعته الحصينة . إن الرجل الذى يسيطر على قلب امرأة لعوب لهو بطل بمعنى الكلمة .

كان (بروم بونز) يملك نوعًا من الفروسية فى طباعه لذا كان يسره أن يحيل الأمور حربًا ، ويدخل معركة الفوز بالحسناء على طريقة الفرسان البسيطة .. القتال ، لكن (إيشابود) كان يدرك قوة منافسه الهائلة بحيث لا يدخل مواجهة معه .. لم يترك هذا من سبيل للمواجهة لدى (بروم) إلا عن طريق المقالب الصبيانية السخيفة التى يمارسها مع عصابته . سدوا مدخنة المدرسة لتملأ المكان بالدخان .. اقتحموا المدرسة ليلاً وقلبوا كل شىء .. حتى حسب المدرس المسكين أن كل ساحرات البلاد اجتمعن هنا ليلاً .

الأسوأ أن (بروم) سخر من خصمه أمام حسنائه، وعلم كلبه أن ينقض عليه أثناء درس إنشاد المزامير.

وفى عصر خريف جميل، جلس (إيشابود) متأملاً فى مقعده المعتاد وفى يده مقرعة.. رمز قوته الاستبدادية. الرعب الأزلى للخطاة. وأمامه الممنوعات التى صادرها مثل تفاحة قضم نصفها وبنادق فلين ودوامات.. يبدو أنه قام بمهمة تطهيرية لأن الصمت كان سائدًا فى الصف.. فجأة قطع هذا الهدوء دخول زنجى صغير يلبس قبعة مهلهلة، وكان يحمل دعوة لحضور حفل هذه الليلة فى دار (فان تاسل).. سلمه إياها ثم انطلق يجرى مبتعدًا وكله فخر بأهميته.

ساد الصخب والهرج الصف الهادئ.. عكف الكل على إنهاء دروسه بسرعة وطارت الكتب بدلاً من أن توضع على الأرفف وانقلبت المناضد وزجاجات الحبر وأطلق سراح الطلبة قبل الموعد بساعة. فخرجوا يتصايحون مهللين فرحين بتحررهم المبكر.

قضى إيشابود نصف ساعة إضافية فى الحمام ينفض أفضل سترة عنده الوحيدة فى الواقع ويتجمل فى مرآة مهشمة معلقة فى بناية المدرسة . أراد الظهور أمام فتاته كفارس حقيقى ، لذا استعار حصانا من فلاح هولندى عجوز غضوب اسمه (هانز فان ريبر) .. هكذا انطلق فى عظمة كأنه فارس يبحث عن المغامرات . أجد على أن أصف متاع هذا الفارس العظيم لذا أقول إن الحصان الذى كان يركبه كان حصان محراث مكسور الساق .. هزيلاً له رأس يشبه المطرقة وله عين فقدت قرنيتها .. أما الأخرى فكان فيها بريق الشياطين . وكان يحمل اسم (البارود) فلابد أن تاريخه كان ناريًا .. لقد كان المفضل لدى سيده (فان ريبر) الذى كان سيئ الطبع فى الركوب ، فلابد أنه بث بعض هذه الروح فى الحيوان . لقد كان فيه من روح الشيطان أكثر من أى حصان آخر أصغر سنًا فى الريف .

كان (إيشابود) مناسبًا لهذا الحصان .. كان مرفقاه يبرزان كأنهما نطاطا غيط .. وكان يلوح بالسوط كأنه

صولجان ، وإذ ركض الحصان بدا كأن ذراعيه أقرب لرفرفة الجناحين . بينما عباءة (إيشابود) تطير وراءه حتى تبلغ ذيل الحصان .. كان هذا هو المنظر الذى غادر به مزرعة (فان ريبر) وهو منظر قلما تراه فى ضوء النهار .

كان يومًا جميلاً كما قلنا ، وكانت الحقول خليطا من اللون الذهبى والأخضر الذى اعتدنا أن نربطه بمعنى الوفرة .. جعل هذا المشهد (إيشابود) يحلم بالزلابية المليئة بالزبد والمدهونة بالعسل من يد (كاترينا فان تاسل) الصغيرة ذات الغمازات .

وصل إلى المزرعة فى المساء ، وقد ازدانت بالأزهار على طريقة الفلاحين المسنين فى التفاخر ، وكان عدد من الريفيين هناك بأناقتهم الريفية المبهرجة . لكن (بروم بونز) كان ملك الحفل .. فقد جاء للحفل على جواده المطهم الشرس (دير ديفل) وهو مخلوق يشبهه مفعم بالهمة وسوء الطبع ، فلا يجسر أحد على التعامل معه سواه . كان مولعًا بالخيول الخبيثة التى تجعل الراكب

لا يطمئن على عنقه ، لأنه كان يعتبر الخيول المطيعة غير جديرة بالفرسان .

لن أصف المباهج التى رآها بطلنا عندما دخل إلى منزل (فان تاسل) .. كل الحسناوات الممتلئات بثيابهن الحمر والبيض ، والشاى الذى يقدم مع حلوى شهية لا تعرف أسرارها إلا ربات البيوت الهولنديات . كعك زنجبيل وكعك بالعسل وكعك بالبندق ثم فطير التفاح وفطير الخوخ ، وشرائح اللحم المدخن دعك من السمك والدجاج المشوى . دعك من الوعاء الكبير الذى يرسل أبخرته الودود فى هواء القاعة ..

أحتاج إلى كثير من الوقت والأنفاس كى أصف هذه المأدبة كما تستحق ، بينما أنا متلهف على استكمال قصتى . من حسن حظ (إيشابود) أنه لم يكن ضيق الوقت مثل راوى قصته ، لذا أعطى كل طبق حقه .

كان شخصًا بسيطا حسن الطباع ممن يتسع قلبهم عندما يأكلون الطعام الطيب ، مثلما يحدث لآخرين عندما يعاقرون الشراب . لم يستطع أن يمنع نفسه

أثناء الأكل من النظر حوله ، وراح يفكر فى احتمال أن يصير يومًا ما هو سيد كل هذا المشهد المترف المبهرج .

وراح يفكر فى اليوم الذى يترك فيه مبنى المدرسة العتيق ، ويتخلص من (فان ريبر) وكل البخلاء الذين أحسنوا إليه ويطرد كل معلم يجرؤ على أن يناديه بـ (زميلى) !

كان (فان تاسل) يمشى بين ضيوفه بوجه جعله الرضا والمرح كأنه البدر . وكان يكتفى بهز رأسه وضربة على الكتف ثم يدعوهم لأن (يخدموا أنفسهم ويأخذوا راحتهم) .

ثم تعالى صوت الموسيقا من الصالة تدعو الموجودين للرقص ، وكان العازف زنجيًا أشيب ظل قائد أوركسترا الجيرة لنصف قرن . انطلق (إيشابود) يرقص ويتطوح فى براعة حتى صار محط إعجاب الزنوج جميعًا أولئك الذين جاءوا من القرى المجاورة ، وشكلوا هرمًا من الوجوه السود تنظر بانبهار للمشهد

من النوافذ ، مظهرين صفوفًا من الأسنان البيض اللامعة من أذن لأذن . كيف لجلاد الصبية هذا أن يكون أقل مرحا بينما فاتنته ترقص معه ؟ وقد جلس (بروم) في ركن وحيدًا يشتعل غيرة وكمدًا .

ثم إن (إيشابود) وقد انتهى الرقص جلس مع الرجال الأكبر سنًا الذين جلسوا يدخنون ويتكلمون عن الحرب .. فقد كانت هذه المنطقة من أغنى المناطق وبالتالى كانت مأوى لكل الفارين من الحرب ورعاة البقر . وكانت ذكريات الحرب قد ابتعدت بما يسمح لكل واحد منهم أن يضيف من خيالاته الخاصة على قصته ويعيد سردها بعد أن يصير بطلاً .

لكن هذه القصص لم تكن تعد شيئًا جوار قصص الأشباح التالية .. إن الأشباح لا تجد فرصة طيبة أو تشجيعًا فى الريف ، لأنه ما إن ينزل الميت إلى قبره ويقرر شبحه الخروج من القبر ليخيف الأحياء حتى يجد أن من يعرفونه قد رحلوا لأرض أخرى .. لهذا لا يجد شخصًا يعرفه .. لكن قصص الأشباح تزدهر فى هذه الأراضى الهولندية حيث لا يرتحل الناس إلا نادرًا .

إلا أن أهم الأسباب كان قرب المنطقة من (سليبى هولو) .. ثمة شىء معد فى هذه البقعة ينفث الأحلام والأوهام فى الناس . كان هناك كثيرون من (سليبى هولو) فى هذا الحفل لذا راحوا يحكون عن أصوات النحيب التى تدوى حول الشجرة العتيقة .. البعض تكلم عن المرأة ذات الثوب الأبيض التى تسكن واديًا صغيرًا منعزلاً فى (صخرة الغراب) . وهى تبكى فى وقت العواصف الثلجية لأنها ماتت وسط الجليد .

إلا أن أكثر القصص دار حول الفارس مقطوع الرأس .. والذى يسمعونه يركض بجواده ليلاً جوار شواهد القبور فى الكنيسة . وقد حكى عنه (بروفر) العجوز الذى لم يكن يؤمن بالأشباح ، لكنه قابل الفارس عائدًا من (سليبى هولو) ، وقد راح يطارده عبر الغابات والمستنقعات ، حتى بلغ الجسر .. هنا استحال الفارس مقطوع الرأس هيكلاً عظميًا وألقى بـ (بروفر) العجوز فى البركة ثم طار فوق قمم الأشجار محدثًا صوت رعد .

كانت لدى (بروم بونز) قصة أكثر غرابة ثلاث مرات .. لقد قابل الفارس فى منتصف الليل ولما كان

يعتبره مهرجا فقد راح يتسابق معه ، لكن الفارس اختفى بحصانه كأنه نار انطفأت .

حكيت هذه القصص بتلك النغمة الخفيضة الخافتة التى يتكلم بها الرجال فى الظلام ، مع سحنات المستمعين التى تتبدى للحظة كلما جذب أحدهم أنفاس غليونه .. هذا كله أثر على (إيشابود) الذى حكى لهم مقتطفات من مؤلفه الذى لا يقدر بمال (ماثر) .

انتهى المرح فبدأ الفلاحون يجمعون عائلاتهم فى العربات ، ولفترة كنت تسمعهم وهم يبتعدون عبر التلال البعيدة .. صوت الفتيات يضحكن مع حوافر الخيل يخفت ويخفت حتى يغيب ..

تأخر (إيشابود) وحده كعادة عشاق الريف .. كى يتبادل كلمات هامسة مع مليكته ، موقنًا أنه الآن على الطريق الصحيح للنجاح .

لا أستطيع أن أقول بصراحة ما قيل فى هذه المحادثة لأننى لا أعرف .. فقط أخشى أن شيئًا خطأ قد حدث ، لأنه رحل ولم يمض وقتًا طويلاً ..

يا لهؤلاء النسوة ! هل كانت الفتاة تتلاعب به ممارسة حيلها اللعوب ؟ هل كان تلطفها معه مجرد وسيلة للوصل إلى قلب منافسه ؟ الله وحده يعلم .. ليس أنا !

كل ما أعرفه أن (إيشابود) رحل دون أن ينظر يمينًا أو يسارًا إلى الثراء الذى كان يحلم به .. اتجه للإسطبل وببضع ركلات من القلب أيقظ جواده من حيث كان ينام يحلم بجبال من القمح ووديان من البرسيم .

تلك كانت أكثر ساعات الليل المسحورة عندما عاد (إيشابود) لبيته عابرًا التلال التى ترتفع فوق (مدينة القطران) والتى عبرها سعيدًا عصر اليوم . كانت ساعة كئيبة مثله ..

فى هذه الساعة كان بوسعه سماع نباح الكلاب من الضفة الأخرى لنهر (هدسون) ، لكنه خافت جدًا يخبرك فقط كم هو بعيد عن هذا الرفيق المخلص للبشر . من حين لآخر يصحو غراب صدفة ويصيح لكنه كان كصوت الحلم فى أذنيه . لم تكن قربه علامات

على الحياة ، فيما عدا صوت نطاط غيط أو ضفدع من مستنقع قريب .

الآن جاءته كل قصص الأشباح التى سمعها مساء لتتزاحم فى ذهنه . ازداد الليل حلكة وبدا كأن النجوم تغوص في السحاب . لم يشعر قط بالوحدة لهذا الحد دعك من أنه اقترب من المكان الذى دارت فيه أكثر قصص الأشباح ، فهنا شجرة تيوليب عالية تبدو كعلامة . كانت غصونها غليظة حتى لتصلح جذوعًا لأشجار أخرى ، وكانت هناك قصة عن (أندريه) التعس الذى اعتقل عندها فأطلق عليها الفلاحون اسم (شجرة ميجور أندريه) ، وكان الفلاحون يرمقونها بمزيج من التطير والاحترام . من ناحية شفقة على ما حدث لضحيتها ذى الحظ العاثر ، ومن ناحية أخرى بسبب القصص الرهيبة المرتبطة بها .

إذ دنا (إيشابود) من هذه الشجرة المخيفة ، بدأ يصفر .. وخيل له أن هناك من يجيب عن هذا الصفير .. وإذ دنا أكثر خيل له أن شيئًا أبيض يتدلى من بين الغصون .. توقف وكف عن الصفير .. لما دنا أكثر رأى أن هذا مكان ضربه البرق فتعرى الخشب الأبيض .

فجأة سمع أنينًا فاصطكت أسنانه .. لكن لم يكن هذا سوى غصن يحتك بآخر إذ يؤرجحهما النسيم .. عبر الشجرة فى سلام لكن مخاوف أخرى كانت تنتظره .

على بعد مائتى ياردة كان جدول صغير يخترق الطريق عابرًا إلى مجرى صغير يطلقون عليه اسم (مستنقع ويلى) .. وقد وضعت بضعة ألواح خشبية لتكون جسرًا فوق هذا الجدول .. على جانب الطريق حيث يدخل الجدول المستنقع توجد أشجار بلوط تلقى ظلالاً موجسة .. فى هذا المكان بالضبط اعتقل (أندريه) التعس .. وفى هذه الظلال توارى رجال الحرس البريطانى الذين اعتقلوه . منذ ذلك الوقت اعتبر هذا الجدول مسكونًا وكان التلاميذ يخافون عبوره بعد حلول الظلام .

إذ مر بالجدول اتخذ قراره وركل الحصان فى ضلوعه ، واندفع لعبور الجدول لكن الحيوان المشاغب بدلاً من الاندفاع للأمام تحرك جانبًا وجرى نحو السور .

ركله (إيشابود) نافد الصبر بقدمه الأخرى لكن هذا كان بلا جدوى .. لقد اندفع الجواد إلى جانب الطريق وسط غابة كثيفة من الأحراش .. راح الناظر يوجه الضربات لضلوع (البارود) العجوز الذى اندفع للأمام، ثم توقف عند الجسر فجأة حتى كاد يوقع راكبه على رأسه .

هنا سمعت أذنا (إيشابود) الحساستان صوتًا على جانب الجسر .. وفى ظل الأيكة رأى شيئًا عملاقًا مشوهًا بارزًا .. لم يتحرك هذا الشىء لكنه بدا متربصًا فى الظلام .. كأنه وحش عملاق يوشك على الانقضاض ..

انتصب شعر المعلم رعبًا .. ماذا يفعل ؟ هل يستدير ويهرب ؟ تأخر الوقت .. ثم ما فرصته فى النجاة من شبح ؟ عفريت يمكنه ركوب جناحى الريح ..

استجمع شجاعته وصاح :

ـ « من أنت ؟ »

لم يتلق إجابة . أعاد السؤال بصوت خائف ، لكن لا إجابة .

أغمض عينه وأخذ ينشد أحد المزامير بحماس لاشعورى ، هنا تحرك ذلك الظل المخيف . ووثب إلى منتصف الطريق .

وبرغم أن الظلمة كانت حالكة ، إلا أنه يمكن إدراك شكل هذا المجهول . بدا فارسًا عملاقًا يركب على صهوة حصان أسود ضخم . لم يبد علامة تدل على العدوانية ولا على الصداقة .. فقط ظل يمشى على جانب الطريق جوار (بارود) الذى بدأ ينتصر على ذعره .

كان إيشابود يفكر فى مغامرة (بروم بونز) مع المرتزق الراكض لذا حاول أن يحث جواده على الابتعاد ، لكن الغريب زاد من سرعة حصانه ليلاحقه .. أبطأ إيشابود سرعة حصانه كى يبقى فى الخلف ، ففعل الآخر نفس الشىء .. بدأ قلبه ينبض بعنف وحاول أن يستعيد المزامير التى كان ينشدها لكن لسانه الجاف التصق بسقف فمه .

كان هناك شىء مخيف فى صمت هذا الرفيق العنيد . سرعان ما اتضح الأمر .. لقد صعد أرضًا مرتفعة جعلت

خيال صاحبه يبدو واضحا أمام السماء ، شل الرعب إيشابود إذ رأى أن هذا الفارس بلا رأس !! وازداد ذعره عندما رأى أن الرأس كان معلقًا أمامه على السرج !

صار ذعره أقرب لليأس ، وأمطر الحصان بالركلات على أمل الفرار بسرعة لكن الشبح لحق به .. هكذا انطلقا وسط الأشجار والأحجار تطلق شررًا عندما يدوسان عليها .. وطارت عباءة إيشابود في الهواء وهو منحن على رأس حصانه أملاً في أن يجعله يسرع .

كانا قد وصلا الطريق الذى يقود إلى (سليبى هولو) ، لكن (بارود) الذى بدا كأنه ملبوس دار دورة عكسية وهبط التل من ناحية اليسار . هذا الطريق يقود إلى الكنيسة .. ويمر بمنطقة تكثر فيها قصص الأشباح .

أعطى هذا التصرف الأحمق من الحصان بعض التفوق فى السباق لراكبه ، لكن إذ هبط التل شعر بالسرج يسقط من تحته .. حاول أن يمسكه من الرمانة بلا جدوى .. استطاع أن ينقذ نفسه بأن يحتضن عنق (بارود) إذ هوى السرج للأرض .. وسمع حوافر حصان مطارده تدوس عليه .

للحظة أصابه الرعب من (فان ريبر) لأن هذا هو سرج الأحد الخاص به .. لكن لا وقت لهذه المخاوف . إن الشبح يلاحقه وهو راكب غير ماهر عليه بذل مجهود ليظل على ظهر الحصان .

رأى فتحة بين الأشجار أخبرته أن جسر الكنيسة قريب .. وقد رأى نجمًا فضيًا يلمع فى الجدول فعرف أنه لم يخطئ .. رأى جدران الكنيسة تلمع تحت الأشجار ، وتذكر المكان الذى توارى فيه منافس (بروم بونز) ..

ـ « لو بلغت الجسر لنجوت .. »

هنا سمع الجواد الأسود يلهث ويصهل جوار أذنه .. بل تخيل أنه يشعر بسخونة أنفاسه . ضرب الحصان بين أضلعه ضربة أخرى فانطلق (البارود) العجوز نحو الجسر .. وركض فوق ألواح الخشب . هنا نظر

إيشابود إلى الوراء ليرى إن كان مطارده سيختفى وسط النيران . هنا رأى العفريت يرتفع فى ركابه ويوشك على قذف رأسه عليه .. »

حاول إيشابود تحاشى القذيفة المريعة لكن تأخر الوقت .. لقد ضربت رأسه فطار ليسقط فى التراب .. وسرعان ما ابتعد (البارود) والراكب الشبح كأنهما العاصفة .

فى الصباح التالى وجدوا الحصان من دون سرجه ، واللجام تحت قدميه . وكان يأكل العشب عند بوابة سيده .

جاءت ساعة العشاء لكن لم يظهر إيشابود .

احتشد الأطفال عند المدرسة وراحوا يمشون على الجدول لكن لا ناظر هنالك .. بدأ (فان ريبر) يشعر بالقلق على مصير إيشابود المسكين وسرجه ، وخرجت مجموعة للبحث عنه .. على جانب الطريق الذى يقود

للكنيسة وجدوا السرج فى الوحل وحوافر الحصان عميقة فى التربة ، وتتبعوها إلى الجسر .. ثم عبروا الضفة حيث يجرى الماء عميقًا أسود .. هناك وجدوا قبعة إيشابود التعس . وجوارها وجدوا قرعة مهشمة .

تم تفتيش الجدول لكن لم يجدوا جثة الناظر . وكمنفذ لوصيته قام (فان ريبر) بجرد الحزمة التى تحوى كل ممتلكاته الدنيوية . كانت تتكون من قميصين ونصف وزوجين من الجوارب الباليه وزوج قديم من الثياب الداخلية القطنية وموسى صدئة وكتاب مزامير ملىء بالصفحات المطوية .

أما عن كتب المعلم فكانت ملكية عامة باستثناء كتاب (ماثر) عن الساحرات . وكتاب عن تفسير الأحلام وجدوا فيه محاولات فاشلة لكتابة قصيدة غزل فى ابنة (فان تيسل) .

هذه الأشياء أحرقها (فان ريبر) الذى صمم على ألا يرسل أطفاله للمدارس ثانية، لأنه لم ير أى خير فى بدعة القراءة والكتابة تلك والدليل أن الناظر لم يكن يملك أى شىء ..

يوم الأحد التالى كان هناك الكثير من النقاش فى الكنيسة حول اختفاء الناظر الغامض .. تناثرت الأقاويل والإشاعات فى الكنيسة وعند الجسر وعند البقعة التى وجدوا فيها القرعة .

تذكروا قصصًا أخرى مماثلة فهزوا الرءوس واستنتجوا أن المرتزق الراكض قد حمل إيشابود معه .

كان عزبًا غير مدين لأحد لذا لم يرهق أحد نفسه بالتفكير أكثر من هذا .. تم نقل المدرسة لمكان آخر وتم تعيين ناظر جديد لها .

صحيح أن فلاحا عجوزا زار نيويورك بعد هذا بأعوام وعرفنا منه هذه المغامرة . وقد أعلن أن

إيشابود ما زال حيًا .. وأنه ترك البلد خوفًا من الشبح ومن (فان ريبر) .. ولأن حبيبته تخلت عنه فجأة .. انتقل لمكان آخر وافتتح مدرسة وفي الوقت ذاته راح يدرس القانون ..

أما (بروم بونز) فبعد رحيل منافسه استطاع أن يأخذ (كاترينا) النضرة إلى مذبح الكنيسة ، ويبدا أنه يعرف تفاصيل كثيرة عن قصة إيشابود ، وكان يضحك من قلبه كلما ذكر موضوع القرعة .. مما جعل كثيرين يعتقدون أنه يعرف عن الموضوع أكثر مما اختار أن يحكيه .

الزوجات الريفيات العجائز هن على كل حال خير من يحكم على هذه الأمور ، وما زلن يؤكدن أن روح إيشابود اختطفتها قوى خارقة ، وما زالت هذه القصة محببة للسرد حول النيران في ليالي الشتاء .

ازدادت هالة التطير المحيطة بالجسر ولهذا ـ ربما ـ تم تغيير الطريق فى السنوات الأخيرة ، بحيث تصل للكنيسة عن طريق الطاحونة .

تهاوت المدرسة المهجورة ، وقيل إن شبح الناظر التعس يسكنها .. ويقول صبى المحراث إنه كان عائدًا لبيته فى ليلة صيف ، عندما سمع إيشابود يترنم عن بعد بمزمور حزين وسط الهدوء الناعس لـ (سليبى هولو) .

1819

* * *

ريب فان وينكل ..

وجدت هذه القصة بين أوراق المرحوم (ديدرتش نيكربوكر) ، وهو سيد مسن من نيويورك كان مهتمًا بتاريخ الهولنديين فى المقاطعة ، وطباع المنحدرين من مستعمريها الأصليين . لكن دراساته التاريخية لم تعتمد على الكتب قدر ما اعتمدت على الناس ، لأن الكتب شحيحة فى هذا الموضوع الأثير لديه ، بينما وجد كنزًا لا يقدر بمال لدى المواطنين المحليين ، وبصفة خاصة زوجاتهم ، اللاتى يعرفن الكثير عن هذا الموضوع التاريخى .

لهذا كان إذا وجد أسرة هولندية أصيلة مستكينة فى بيتها الريفى منخفض السقف تحت شجرة جميز وارفة ، فإنه يعتبرها حزمة من الوثائق المهمة ويدرسها بحماس دودة الكتب .

كانت نتيجة هذه البحوث هى تاريخ المقاطعة فى عهد الحكام الهولنديين والذى طبعه بعد أعوام . كانت هناك آراء مختلفة حول القيمة الأدبية لهذا التاريخ ..

كانت ميزته الرئيسة هى الدقة .. الدقة التى شكوا فيها فى البداية ، لكنها صارت الآن حقيقة راسخة .. وقد انضمت هذه السيرة لكتب التاريخ باعتبارها كتابًا ذا مرجعية لا شك فيه .

توفى السيد العجوز بعد نشر هذا العمل بفترة قصيرة ، لذا لا أعتقد أننى سأسبب أذى لو قلت إنه كان من الأفضل له لو استغل وقته فى شىء أفضل ، مثل الأشغال الشاقة على سبيل المثال . لكنه على كل حال مارس هوايته كما أراد ، وبرغم أنها من حين لآخر نثرت الغبار فى عيون الجيران ، وأحزنت بعض أصدقائه الذين كان يحمل نحوهم أعمق الاعتزاز ، إلا أن الناس يتذكرون أخطاءه (فى أسف أكثر منه غضبًا) ..

مهما كان رأى النقاد فى ذكراه فإن الكثيرين ممن يهتم المرء برأيهم يحملون له مشاعر الإعزاز ، خاصة بعض خبازى الكعك الذين بلغ بهم الحماس أن حفروا صورته على كعك العام الجديد ، وبهذا منحوه فرصة

الخلود .. وهذا يشبه أن تنقش صورتك على ميدالية وترلو أو ربع بنس الملكة آن .

* * *

لا بد أن كل من قام برحلة فى نهر (هدسون) يتذكر جبال (كاتسكيل) .. إنها فرع مشوه من مرتفعات الأبالاشى ويمكنك أن تتابعها على مجرى النهر كأنها تحرس الريف المجاور . إن كل تغيير فى الفصول .. كل تغيير فى الطقس .. بل كل ساعة فى اليوم تحدث تغيراً ما فى أشكال هذه المرتفعات .. وتنظر لها الزوجات الطيبات على أنها بارومترات (مقاييس جو) ممتازة . حينما يستقر الطقس تتدثر باللونين الأزرق والأرجوانى وترسم حدودها على السماء الصافية ، لكن حينما تختفى السحب تتكثف فوقها أبخرة رمادية على القمم تتوهج مع أشعة الشمس الغاربة لتبدو كأنها تيجان مجد .

أسفل هذه المرتفعات قد يلمح المسافر الدخان الخفيف ينبعث من قرية تلتمع أسقفها فى ضوء الشمس بين الأشجار ، حيث يذوب الأفق فى السماء ..

إنها قرية صغيرة قديمة جدًا أسسها المستعمرون الهولنديون فى الأيام الأولى من عهد (بيتر ستويفيزانت) ليرحمه الله - وهناك منازل معدودة للسكان الأصليين بنيت من قرميد أصفر جاء من هولندا وله نوافذ متشابكة وواجهات من الجملون عليها الديكة الدوارة التى تتنبأ بالطقس .

فى هذه القرية بالذات وفى واحد من هذه البيوت (التى أعترف بأن الزمن أبلاها) عندما كانت البلاد من أملاك ملك بريطانيا العظمى ، عاش رجل بسيط طلق السجايا يدعى (ريب فان ونكل) .. كان من (آل ونكل) الذين طار صيتهم فى أيام (بيتر ستويفيزانت) المليئة بالفروسية ، ورافقوه فى حصار حصن (كريستينا) . لكنه ورث القليل من مجد أجداده العسكرى .. وقد سبق أن قلت إنه رجل بسيط طلق السجايا ، وكان جارًا طيبًا وزوجا مطيعًا كالدجاجة . ولابد أن الخصلة الأخيرة هى التى أكسبته هذه الشعبية ، لأن الرجال الذين يظهرون الخنوع والطيبة فى الخارج هم الذين تسيطر عليهم زوجة متنمرة فى البيت . بلا شك تصير طباعهم لينة

قابلة للطرق من فرط حياتهم فى نار فرن الحياة المنزلية القاسى . هذه هى مزايا الصبر الطويل والمعاناة ..

من هذا المفهوم تصير الزوجة المشاكسة الشرسة بركة حقيقية ، وبهذا المعنى قد ظفر (ريب فان وينكل) بالبركة مضاعفة ثلاث مرات .

بالقطع كانت زوجات المنطقة يملن له وفى كل مشاجرة له كن يلقين اللوم على مدام (فان وينكل) .

كذلك كان أطفال القرية يتصايحون فرحا عندما يقترب .. كان يساعدهم فى اللهو ويصنع ألعابهم ويعلمهم كيف يطيرون الطائرات الورقية وكيف يقذفون البلى ، وكان يحكى لهم قصصا ممتعة عن العفاريت والهنود ..

وكلما مشى فى القرية كان يحاط بمجموعة منهم ، يتعلقون بظهره ويلعبون ألف حيلة عليه بلا عقاب ، ولم يكن كلب واحد ينبح عليه فى القرية كلها .

كانت غلطة (ريب) العظمى هى نفوره من أى نوع من العمل المربح. لم يكن هذا عن كسل أو عوز للاجتهاد، لأنه كان قادرًا على الجلوس على صخرة رطبة حاملاً قضيبًا ثقيل كأنه رمح تترى ويصطاد طول اليوم دون شكوى .. حتى لو لم يجد سمكةً واحدة. لم يأب قط معاونةَ أى جار حتى فى أصعب عمل ممكن، وكان أسرع الريفيين الذين ينزعون أغلفةَ القمح الهندى أو يبنون سياجا حجرية، وكانت نسوة القرية يرسلنه فى مأمورياتهن وكل ما لا يرغب أزواجهن الأقل مجاملة فى عمله. باختصار كان (ريب) يؤدى عمل الجميع ما عدا عمله هو نفسه، وكان يجد أداء واجبات الأسرة وإدارة مزرعته أمورًا مستحيلة.

فى الواقع قال إن العمل فى مزرعته ليس مفيدًا، وكانت أسوأ قطعة أرض فى الريف كله. كل ما يخصها كان خطأ وسوف يظل خطأ بالرغم منه. كانت أسواره تسقط دومًا وأبقاره تضل طريقها، أو تدخل على الكرنب .. وكان العشب ينمو أسرع فى مزرعته من أى مكان آخر. وكانت الأمطار تتجمع فى المكان الذى

يكون عليه القيام بعمل فيه . وراحت مزرعته تزول قيراطا خلف آخر حتى لم يعد لديه سوى بعض القمح الهندى والطماطم .

كان أطفاله أيضًا مبعثرى الثياب متوحشين كأنما ليسوا ملكا لأحد ، وبدا أن ابنه (ريب) المراهق سوف يرث الطباع ذاتها كما يرث ثياب أبيه . كنت تراه يمشى كالمهر خلف أمه ، لابسًا زوجا من سراويلات أبيه القصيرة وقد اضطر أن يمسكها بيده كما تفعل السيدات الراقيات بذيل ثوبهن فى الجو المطير .

على كل حال كان (ريب فان ونكل) واحدًا من الفانين السعداء ذوى الميول الحمقاء الذين يأخذون العالم ببساطة ، ويأكلون الخبز الأبيض أو الأسمر بأقل منونة من التفكير أو المشاكل ، ويفضل أن يجوع ومعه قرش على أن يعمل للحصول على جنيه . فلو ترك وشأنه لمرت حياته بسهولة تامة ، لكن زوجته ظلت تلومه على كسله ولامبالاته والخراب الذى يجلبه للأسرة .. طيلة النهار والظهيرة والمساء يعمل لسانها

بلا انقطاع ، وكل شىء يفعله أو يقوله يسبب إعصارًا من البلاغة المنزلية .

كانت له طريقة واحدة فى الرد على هذه المحاضرات وقد صار يجيدها من كثرة الاستعمال . هى أن يهز كتفيه ورأسه ولا يقول أى شىء .. كان هذا يجعل زوجته تطلق وابلاً من السباب مما يجعله يشتاق الخروج من البيت . المكان الوحيد الذى يخص هذا الزوج الخنوع فعلاً .

كان الشىء الأساسى الذى يخص (ريب) فى الدار كلبه (وولف) الخنوع مثل سيده ، لأن المدام اعتبرتهما رفيقين فى البلاهة ، وكانت تنظر لـ (وولف) نظرة شريرة باعتباره سبب ضلال سيده .

فى الحقيقة كان كلبًا محترمًا شجاعًا كأفضل حيوان مشى فى الغابة ، لكن أية شجاعة يمكن أن تتحمل الأهوال الأبدية للسان المرأة السليط ؟

ما إن يدخل (ولف) البيت حتى يتهاوى كبرياؤه ويلمس ذيله الأرض أو يتكور بين فخذيه ، ويتسلل خائفًا وهو

ينظر نظرات جانبية خائفة للسيدة (فان ونكل) وبمجرد أن تتحرك مكنسة يطير للباب وهو ينبح .

ساءت أيام (ريب فان ونكل) إذ تقدمت به فترة الزواج ، مع طبع حاد لا يرق بمرور الوقت ، واللسان السليط هو الشيء الوحيد الذى يزداد قوة بكثرة الاستعمال .

كان يسلي نفسه عندما يطرد من البيت بأن يقصد النادى الدائم للحكماء وفلاسفة القرية ، الذى كان يجتمع فى مقعد أمام حانة صغيرة تعود لأيام جلالة الملك (جورج) الثالث . هناك يجلسون فى الظل فى يوم صيف خمول يتبادلون الإشاعات عن القرية أو يحكون قصصًا ناعسة لا معنى لها عن لاشيء . لكن الأمر كان يستحق لو سمعت المناقشات التى كانت تدور من حين لآخر حينما تقع فى أيديهم جريدة سقطت من مسافر ..

كانوا يصغون للمكتوب إذ يقرؤه (ديريك فان بومل) ناظر المدرسة ، وهو رجل رشيق مثقف لا تستوقفه أضخم كلمة فى القاموس . وكانوا يعلقون على الأحداث الكبرى بعد وقوعها بأشهر عدة .

كان (نيكولاس فيدر) ينسق آراء هذه الزمرة، وهو بطريرك القرية وصاحب الحانة التي يجلس على بابها من الصباح حتى المساء .. فقط يتحرك بحيث يتفادى الشمس ويبقى في ظل الشجرة العملاقة بحيث يعرف الجيران الساعة من وضع مقعده، كأنها مزولة.

صحيح أنه لم يكن يتكلم إلا فيما ندر، لكنه كان يدخن غليونه بلا انقطاع. وكان أتباعه (وكل رجل عظيم له أتباع) يفهمونه ويعرفون كيف يظفرون بآرائه.

كان إذا سمع شيئًا لا يروق له يدخن غليونه في حدة ويطلق نفثات غضبى لكن إذا سره ما سمع بدأ يزفر الدخان بهدوء وتلذذ .. أو يسحب الغليون من فمه ويدع الدخان العطر يلتف حول أنفه.

حتى في هذه القلعة الحصينة لم يكن (ريب) التعس في مأمن من زوجته الشرسة .. كانت تنقض على الجلسة الهادئة وتدعو على الموجودين بالخراب التام. وحتى هذا الرجل المهيب (نيكولاس فيدر) لم يكن

بمأمن من لسانها السليط وكانت تتهمه مباشرة بأنه يشجع زوجها على الكسل .

تملك اليأس (ريب) البائس وكان مهربه الوحيد للفرار من عمل المزرعة وتذمر زوجته أن يأخذ بندقيته ويجول فى الغابة . هناك قد يجلس على جذع شجرة ويقاسم (وولف) محتويات حافظته .. فقد كان يعتبره زميلاً فى الاضطهاد والمعاناة :

ـ « يا (وولف) المسكين .. سيدتك تعذبك .. لكن لاتقلق يا صاحبى .. ما دمت حيًا لن تحتاج لصديق يقف جوارك »

فكان (وولف) يهز ذيله وينظر بحزن لوجه صاحبه ، ولو كانت الكلاب تشعر بالشفقة فأنا واثق من أنه كان يبادل صاحبه المجاملة من أعماق قلبه .

ذات يوم خريفى جميل ، تسلق (ريب) وهو لا يشعر إلى جزء من أعلى أجزاء مرتفعات (كاتسكيل) . كان يبغى صيد السناجب كعادته وقد ردد الصمت مرارا ومرارا طلقات بندقيته . لاهثًا منهكا ألقى بنفسه وقت

العصر على هضبة صغيرة تغطيها أعشاب الجبال التى تتوج أعلى المنحدر . ومن فتحة بين الأشجار كان يرى الريف على بعد ميل محاطا بالغابات . على البعد رأى نهر (هدسون) العظيم يتحرك فى صمت عبر دربه السحرى الصامت بينما تنعكس سحابة أرجوانية هنا وهنا .. غافية على صدره الزجاجى ثم فى النهاية تتلاشى فى الزرقة .

على الجانب الآخر رأى واديًا عميقًا منعزلاً .. بريًا مقفرًا .. وقد امتلأ قاعه ببقايا الصخور الهاوية . تضيئه بصعوبة أشعة الشمس .. رقد (ريب) بعض الوقت يرمق المشهد وكان الليل يقترب والجبال تلقى ظلالها الزرقاء فوق الوديان . رأى أن الظلام سيحل قبل أن يبلغ القرية . وتنهد لما أدرك أنه سيعود إلى أهوال المدام (فان ونكل) .

إذ أوشك على النزول سمع صوتًا ينادى من بعيد :

ـ « (ريب فان ونكل) .. (ريب فان ونكل) !! »

نظر حوله فلم ير إلا غرابًا يحلق فوق الجبل . فكر فى أنه يتخيل ، واستدار ليهبط ، لكن سمع ذات الصيحة تتردد عبر الجبال :

ـ « (ريب فان ونكل) .. (ريب فان ونكل) !! »

فى نفس اللحظة قوس (وولف) ظهره، وأطلق عواء خفيضًا .. وراح ينظر فى ذعر إلى الوادى. شعر (ريب) بتوجس خفى ونظر فى رهبة إلى هذا الاتجاه .. كان شىء غامض يتسلق الصخور وقد انحنى ظهره من ثقل شىء ثقيل على كتفه. دهش إذ رأى بشرًا فى هذا المكان القفر، لكنه افترض أن هذا واحد من الجيران بحاجة لعونه فتوقف كى يمنحه العون.

إذ دنا الغريب أكثر ظل مندهشًا من غرابة مظهره. كان شيخًا قصير القامة قوى البنيان له شعر كث ولحية خطها الشيب وثيابه كانت على الطراز الهولندى العتيق، وكان على كتفه برميل صغير يبدو أنه ملىء بالخمر .. أشار لـ (ريب) كى يساعده فى حمله.

برغم خجله وشكه فى هذا الوجه الجديد، فقد ساعده (ريب) بخفته المعهودة وجلس الرجلان على حافة أخدود كانت تجرى فيه السيول قديمًا .. وإذ نزلا كان (ريب) يسمع من بعيد صوت جلجلة أجراس كأنها قادمة من وهد بعيد. توقف ليصغى ثم فكر أن هذه

إحدى الانهيارات التى تحدث من حين لآخر فى الهضاب العالية . وإذ مرا بالوهد بلغا أرضًا منبسطة تحيط بها صخور عمودية فوقها أشجار تنشر غصونها فلم يريا إلا جزءًا من السماء وسحب المساء اللامعة .

طيلة هذا الوقت ظل (ريبب) ورفيقه صامتين .. الأول كان يتساءل عن مغزى حمل برميل خمر إلى أعلى هذه الهضبة المتوحشة ، لكن كان هناك شىء غامض فى المجهول جعله يشعر بالرهبة .

هنا بدأت عجائب أخرى تظهر نفسها ، ففوق أرض مستوية كان عدد من الأفراد غريبى المنظر يلعبون لعبة الأوتاد التسعة .

كانوا يلبسون ثيابًا همجية عتيقة الطراز .. وبعضهم كان يلبس صدريات قصيرة ، وبعضهم يحمل مديًا فى حزامه وأكثرهم كان يلبس سراويل قصيرة .. وهو منظر يشبه منظر الدليل .

سماتهم أيضًا كانت متميزة .. أحدهم كان ذا لحية عملاقة ووجه عريض وعينين خنزيرتين صغيرتين . وواحد آخر بدا

وجهه كأنما لا يحوى إلا الأنـف .. وعليـه قبعـة رغيفيـة المنظر بيضاء كالسكر ويتدلى منها ذيل ديك أحمر ..

كلهم كانوا ملتحين .. لحى مختلفة الألوان والأحجام . وبدا أن أحدهم هو القائد .. كان شيخًا سمينًا لوحت الشمس سحنته .. وكـان يلبـس قبعـة عاليـة مزينـة بالريش وله جـورب أحمر وحذاء عـالى الرقبـة مزين بالزهور .

ذكرت المجموعة (ريب) بالصور الفلامنكية القديمة فى بهو (دومينـى فـان شيك) خـورى البلـدة . والتـى جلبها من هولندا عندما أنشئت المستعمرة .

ما بدا غريبًا لـ (ريب) هو أن هـؤلاء القوم يسلون أنفسهم إلا أن وجوههـم شـديدة الصرامـة واحتفظـوا بصمت غريب ، بحيث كانوا أكثر مجموعة مرحـة كآبـة رآهـا فى حياتــه . لا صـوت إلا صـوت الكـرات التـى يقذفونها فتحدث صوت أجراس تتردد عبر الريـف كلـه كأنها عواصف رعدية .

إذ دنا (ريب) ومرافقه منهم ، كفوا عن اللعب وراحوا يرمقونه بنظرة ثابتة كأنهم التماثيل .. بوجوه كالحة فاقدة البريق حتى إن قلبه اعتصر واصطكت قدماه ..

أفرغ مرافقه البرميل فى قنانى كبيرة ثم طلب منه بالإشارة أن ينضم للمجموعة . أطاع فى خوف بينما هم يشربون الخمر فى صمت ثم يعودون للعبهم .

بدأ خوف (ريب) ورهبته يتلاشيان ، بل خاطر عندما لم تكن هناك نظرات مصوبة نحوه بأن يذوق الشراب .. وجده شبيهًا بالمشروبات الهولندية الممتازة . كان بطبعه من الطراز شديد الظمأ لذا كرر الجرعة . جرعة تلت أخرى وبدأت قواه تتخلى عنه .. شعر بعينيه تسبحان فى رأسه وبدا رأسه يتهاوى وغاب فى سبات عميق .

إذ صحا وجد نفسه على الهضبة الخضراء التى رأى عندها الرجل المسن . فرك عينيه فقد كان صباحا

مشمسًا . كانت الطيور تشقشق بين الغصون والعقاب يحلق فى السماء متنسمًا هواء التلال النقى .

فكر (ريب) :

ـ « بالتأكيد لم أنم هنا طيلة الليل . »

وتذكر ما رآه قبل النوم .. الرجل الغريب الذى يحمل برميلاً والوهد والمخبأ بين الصخور .. والمجموعة العجيبة التى تلعب لعبة الأوتاد التسعة .. القارورة .

ـ « تلك القارورة .. تلك القارورة اللعينة !! ماذا سأقول للمدام (فان ونكل) لأفسر ؟ »

ونظر حوله بحثًا عن بندقيته لكن بدلاً من السلاح النظيف المدهون بالزيت وجد بندقية عتيقة جواره .. وقد غطى الصدأ الماسورة وسقط ترباسها .. بدأ يشك فى أن هؤلاء المهرجين قد لعبوا حيلة عليه .. خدروه بالخمر وسرقوا سلاحه .

لقد اختفى (وولف) كذلك لكن ربما كان يطارد سنجابًا أو طائر حجل .. صفر يناديه وصاح باسمه لكن بلا جدوى .. رددت الأصداء الصفير والصراخ لكن لم يظهر كلب ..

قرر أن يزور موقع حفل أمس كى يطالب بكلبه وبندقيته . إذ نهض ليمشى وجد أنه متصلب المفاصل يفتقر للياقته المعتادة ..

فكر (ريب) :

ـ « هذه الأسرة الجبلية لا تناسبنى .. وإذا كان هذا الحفل سيتركنى فريسة الروماتزم فلسوف يكون لقائى مع المدام (فان ونكل) رائعًا »

وجد الأخدود الذى تسلقه مع مرافقه ليلة أمس لكن لشدة دهشته كان نهير جبلى يتدفق الآن عبره . يتواثب من صخرة لأخرى ويملأ الأخدود بالضوضاء . قرر أن يتسلق جانبه وراح يشق طريقه العسير بين شجر الغار

وأغصان البتولا .. وكان يشتبك بغصون الكروم التى تلتف من شجرة لأخرى .. وتشكل شبكة تسد دربه .

عن بعد بلغ الموضع الذى ينزل فيه الوهد إلى الوادى .. لكنه لم يجد فتحة . كانت الصخور تشكل جدارًا لا يمكن اختراقه ، ومن فوقه كان الماء يتدفق ليحدث رغوة كثيفة .

هنا توقف (ريب فان ونكل) المسكين ..

من جديد صفر ونادى كلبه فلم يجب عليه إلا نعيب الغربان وهى تحلق حول شجرة جافة تقف جوار جرف تغمره الشمس . كانت الغربان تشعر بالأمان فى تحليقها ، فبدا أنها تنظر لحيرة هذا البائس ..

ماذا يفعل ؟ إن النهار يرحل وهو يشعر بالجوع لأن هذا موعد إفطاره ..

أحزنه التخلى عن سلاحه وكلبه وكان يخاف لقاء زوجته ، لكن ليس من العقل أن يموت جوعًا وسط

التلال .. لهذا حمل البندقية العتيقة الصدئة على كتفه ، وبقلب ملىء بالأسى والحزن نزل متجهًا لداره .

إذ دنا من القرية قابل أناسًا لم يعرف واحدًا منهم .. وهذا أثار دهشته لأنه كان يحسب نفسه خبيرًا بكل سكان الريف .

كانت ثيابهم غريبة كذلك .. موضة تختلف عن التى ألفها ..

راحوا ينظرون له فى دهشة وكلما نظروا له حكوا ذقونهم .. تكرار هذه الإشارة أثار انتباه (ريب) فتحسس ذقنه لا شعوريًا .. إذا به يجد أن لحيته طولها قدم !

كان قد بلغ حدود القرية ، فراح حشد أطفال غرباء يجرون وراءه ويصيحون ويشيرون للحيته الرمادية ، وكذلك الكلاب التى لم يعرف أيًا منها .. لقد راحت تنبح عليه ..

لقد تغيرت القرية كلها .. كانت كبيرة ومزدحمة ..

هناك بيوت لم يرها قط .. أسماء غريبة على الأبواب .. وجوه غريبة فى النوافذ .. كل شىء غريب .. لقد تخلى عنه عقله وراح يتساءل إن كان هو أو العالم حوله مسحورًا ..

بالتأكيد هى قريته كما تركها .. هناك مرتفعات (كاتسكيل) وهنا يجرى نهر هدسون الفضى ، كل تلة حيث تركها .. وقد شعر بذهول بالغ :

ـ « تلك القنينة ليلة أمس .. لابد أنها أطارت صوابى .. »

بصعوبة وجد طريق داره ، فدنا منه فى رهبة صامتة .. متوقعًا أن يسمع صراخ المدام (فان ونكل) فى أية لحظة ؟..

وجد البيت قد تداعى والسقف قد هوى والنوافذ محطمة والأبواب منتزعة من مفصلاتها .. كلب جائع

يشبه (وولف) يقف هناك .. ناداه (ريب) باسمه لكن الكلب زمجر وكشر عن أنيابه ثم ابتعد .

قال (ريب) متنهدًا :

ـ « حتى كلبى ذاته قد نسانى .. »

دخل البيت الذى كانت مدام (فان ونكل) تحافظ عليه منظمًا إذا أردنا قول الحقيقة .. كان خاليًا مهجورًا .. هذا قهر مخاوفه الزوجية فناداها . نادى زوجته وأطفاله .. فرددت الغرف الخالية صوته ثم ساد الصمت ..

أسرع نحو ملجئه القديم .. حانة القرية .. لكنها كانت قد اختفت ..

كانت هناك بناية من الخشب مكانها ولها نوافذ كبيرة بعضها تهشم وتم إصلاحه بالقبعات والتنورات .. وفوق الباب لافتة تقول :

فندق الاتحاد

جوناثان دوليتل

وبدلاً من الأشجار التى كانت تظلل الحانة الهولندية كان هناك قضيب عال على قمته شىء يبدو كعباءة حمراء .. ومنها يرفرف علم عليه حشد من النجوم والشرائط ..

كان كل هذا غريبًا غير مفهوم .. لقد عرف العلامة التى كانت عليها صورة الملك (جورج) الذى كان يدخن غليونه فى سلامٍ تحته ، لكنه كان قد تغير .. لقد كان يحمل سيفًا فى يده بدل الصولجان ، والرأس زين بقبعة متبخترة ، وتحتها كتب بحروف كبيرة (الجنرال واشنطن) .

كان هناك كالعادة حشد من الناس عند الباب لكن لم يعرف أحدهم .. بدا كأن طبع الناس ذاته تغير . صاروا مشغولين صاخبين بدلاً من النعاس وصوت البلغم فى الصدور .. بحث عن الحكيم (نيكولاس فيدر) بوجهه العريض وذقنه المزدوجة وغليونه الطويل الذى يطلق سحب الدخان بدلاً من الكلمات .. أو (فان بومل) الناظر الذى يطالع محتويات جريدة عتيقة ..

بدلاً من هذا كان شاب نحيل صفراوى الهيئة امتلأت جيوبه بالمنشورات يلقى خطبة ملتهبة عن حقوق المواطنين والانتخابات وأعضاء الكونجرس والحرية و(باتكرز هيل) .. كانت هذه رطانة باللغة البابلية بالنسبة لـ (فان ونكل) الحائر ..

كان منظر (ريب) بلحيته الشائبة وبندقيته الصدئة وجيش من النساء والصبية وراءه مما يجذب انتباه السياسيين بالحانة ..

التفوا حوله يرمقونه من رأسه لقدميه بفضول عظيم ..

جذبه الخطيب ودفعه ليقف إلى جانبه ثم سأله :

ـ « أى جانب انتخبته ؟ »

نظر له (ريب) فى غباء مطلق .. هنا جذبه شاب قصير القامة من ذراعه وهزه ليقف على أطراف أصابعه وسأل فى أذنه :

ـ « هل أنت اتحادى أم ديمقراطى ؟ »

لم يفهم (ريب) هذا السؤال ..

هنا شق الزحام رجل معتد بنفسه عليم ببواطن الأمور ، دافعًا الناس بكوعيه ذات اليمين واليسار ثم وقف أمام (ريب فان ونكل) ونظر له نظرة كادت تخترق روحه ، وسأله بنبرة صارمة :

ـ « كيف جاء الانتخابات ببندقية على كتفه ورعاع من خلفه ؟ هل يريد أن يحدث شغبًا فى القرية؟ »

صاح (ريب) خائفًا :

ـ « واحسرتاه يا سادة ! أنا رجل هادئ فقير .. من سكان المكان ومن رعايا الملك المخلصين .. فليحفظه الله .. »

هنا دوى الصراخ من الواقفين :

ـ « محب لبريطانيا ! محب لبريطانيا ! جاسوس ! لاجئ .. اطردوه ! تخلصوا منه .. »

بكثير من العسر استطاع الرجل ذو القبعة أن يعيد الهدوء ، وقد تجعد حاجباه أكثر عشر مرات ، ومن جديد سأل المتهم المجهول عن سبب مجيئه .. من يسأل عنه ؟

طمأنه الرجل البائس أنه لا يبغى ضررًا لكن جاء بحثًا عن بعض الجيران الذين كانوا يملكون الحانة .

- « ومن هم ؟ قل أسماءهم .. »

فكر (ريب) قليلاً ثم سأل :

- « أين (نيكولاس فيدر) ؟ »

للحظات ساد الصمت ، ثم أجاب عجوز في صوت حاد :

- « (نيكولاس فيدر) ؟ لقد مات منذ ١٨ عامًا !! كان هناك شاهد قبر في فناء الكنيسة يقص قصته لكن هذا قد ذهب وتآكل كذلك »

- « أين (بروم دوتشر) ؟ »

- « ذهب للحرب في بدايتها .. يقول البعض أنه قتل أثناء قصف (ستورمي بوينت) .. آخرون يقولون إنه غرق في عاصفة عند (أنف أنطوني) .. لا أعرف .. المهم أنه لم يعد قط .. »

- « وأين الناظر (فان بومل) ؟ »

ـ « ذهب للحـرب كذلك وكـان قـائدًا عظيمًا .. وهو الآن فى الكونجرس .. »

تداعى قلب (ريب) إذ سمع هذه الأنباء السيئة عن بيتـه وأصدقائـه .. إنـه وحيد فـى العالم . أدهشـتـه كـل إجابـة بكل هذه المواضيـع التـى لا يفهمهـا : الحـرب الكونجرس ستونى بوينت ولم يملك شجاعة كـى يسـأل عن أصدقاء آخرين .. لكنه صاح فى يأس :

ـ « هل يعرف أحدكم هنا (ريب فان ونكل) ؟ »

صاح اثنان أو ثلاثة :

ـ « أوه .. (ريب فان وينكل) ! لو أردت الدقة فهذا ابنه يستند على الشجرة .. »

نظر (ريب فـان ونكل) فرأى صورة أخرى دقيقـة منـه يـوم تسلق الجبل .. غالبًا نفس الكسل وبالتـأكيد نفس الثياب الرثة .

الآن كان الرجل المسكين فى أتعس حال .. بـدأ يشك فى حقيقته وما إذا كان شخصًا آخر . وفى وسط حيرته سأله الرجل المعتد بنفسه عمن هو وما اسمه ..

صاح وقد (غلب حماره) :

ـ « الله أعلم .. لست أنا .. أنا شخص آخر .. هذا ابنى .. لا .. هذا شخص لبس ثيابى .. كنت نفسى أمس لكن نمت فى الجبال وقد بدلوا سلاحى وتغير كل شىء .. وأنا تغيرت .. لا أعرف اسمى ولا من أنا .. »

بدأ الواقفون يتبادلون النظرات ، وهزوا الرءوس وغمزوا لبعضهم ودقوا بأصابعهم على الجباه . وتعالى همس عن ضرورة أخذ السلاح منه لمنع العجوز من ارتكاب مصيبة .. هنا انسحب الرجل المتأنق دون إبطاء .

فى هذه اللحظة الحرجة ظهرت امرأة مليحة واخترقت الزحام لتلقى نظرة على الرجل أشيب اللحية . كان بين يديها طفل ممتلئ .. وقد أصابه الهلع من منظره فراح يصرخ .

قالت :

ـ « اصمت يا (ريب) .. اصمت يا أحمق .. العجوز لن يؤذيك .. »

أيقظ اسم الطفل وانطباع أمه وصوتها قطارًا من الذكريات فى عقله ، فسألها :

ـ « ما اسمك أيتها المرأة الطيبة ؟ »

ـ « (جوديث جاردنير) .. »

ـ « واسم أبيك ؟ »

ـ « آه .. كان المسكين يدعى (ريب فان ونكل) .. لكن هذا كان منذ عشرين عامًا حينما ترك البيت بسلاحه .. ولم نسمع عنه من حينها .. جاء كلبه من دونه .. لانعرف إن كان أطلق الرصاص على نفسه أم اختطفه الهنود .. لا أحد يعرف .. كنت طفلة وقتذاك .. »

لم يكن لدى (ريب) إلا سؤال واحد يسأله لكنه سأله متلعثمًا :

ـ « أين أمك ؟ »

ـ « أوه .. لقد ماتت بعد وقت قصير .. انفجر أحد شرايينها فى نوبة انفعال لدى أحد بقالى (نيو إنجلند) .. »

على الأقل كان هذا الجزء مما يريح النفس ..

لم يستطع الرجل أن يتمالك نفسه أكثر فأمسك بابنته وطفلها وعانقهما وصاح :

ـ « أنا أبوك ! الذى كان (ريب فان ونكل) الشاب ! هو (ريب فان ونكل) العجوز الآن .. هل يعرف أحدكم (ريب فان ونكل) التعس ؟ »

وقف الكل مندهشين حتى خرجت عجوز تترنح من وسط الزحام ، ووضعت يدها على حاجبها وظلت تحدق في وجهه للحظات ثم هتفت :

ـ « بالتأكيد ! هذا هو (ريب فان ونكل) !! إنه هو نفسه ! مرحبًا بك فى دارك ثانية يا جارى العجوز .. أين كنت طيلة عشرين عامًا ؟ »

حكى (ريب) قصته لأن العشرين عامًا كانت بالنسبة له ليلة واحدة .. حدق فيه الجيران وهو يحكيها ، وبعضهم راح يغمز لجاره أو يضع لسانه فى خده .. أما الرجل المعتد بنفسه الذى شعر بأن الخطر زال فقد عاد

للحقل ، ولوى طرفى فمه وراح يهز رأسه .. هكذا هز كل الواقفين رءوسهم .

تقرر أخذ رأى العجوز (فاندردونك) الذى شوهد يقترب فى الطريق . كان حفيد مؤرخ يحمل الاسم ذاته ، كتب واحدًا من أقدم التقاويم للمقاطعة .

كان (بيتر) أقدم سكان القرية ويحفظ كل تاريخ وتقاليد الجيرة .

نظر لـ (ريب) بعض الوقت ، وأيد قصته بشكل مقنع جدًا .. أكد للواقفين أن هذا حق .. لقد قال سلفه المؤرخ أن مرتفعات (كاتسكيل) كانت مسكونة دومًا بكائنات غريبة ..

وأكد أن (هندريك هدسون) العظيم الذى اكتشف المقاطعة والنهر يقيم احتفالا ليليًا مع طاقمه كل عشرين عامًا ، على سبيل زيارة مسرح أمجاده .. ويحرس النهر والمدينة العظمى التى تحمل اسمه . قال إن أباه رآهم ذات مرة فى ثيابهم الهولندية القديمة ، يلعبون لعبة الأوتاد التسعة فى واد بالجبل .. وإنه سمعهم ذات ليلة صيف كأنهم أصوات الرعد البعيدة .

لنختصر : نقول إن المجموعة تفرقت وعادت لموضوع الانتخابات الأكثر أهمية . أخذت ابنة (ريب) أباها للدار ليعيش معها ، وكان عندها بيت أنيق مؤثث جيدًا وفلاح بدين لطيف هو زوجها .. تذكر (ريب) أنه كان أحد الصبية الذين يتسلقون ظهره ..

أما عن ابن (ريب) ووريثه الذى يشبهه تمامًا فقد عين ليعمل فى المزرعة ، لكنه أظهر ميله الوراثى لعدم عمل أى شىء إلا ما يهمه شخصيًا .

استعاد (ريب) عاداته القديمة وجولاته ، وسرعان ما وجد عددًا من رفاق الماضى لكن حالهم كانت مزرية بسبب مفعول الزمن .. وقرر أن يكون صداقات بين الأجيال الصاعدة الذين صاروا يميلون له بسرعة .

ولما لم يكن لديه ما يفعله فى البيت ، وبما أنه بلغ السن التى يمكن للمرء أن يكون كسولاً ولا يلام ، فقد عاد ليجلس أمام الحانة ، واعتبروه من حكماء القرية وشاهدًا على الزمن القديم (قبل الحرب) .

مر وقت طويل قبل أن يندمج فى القيل والقال أو يفهم الغرائب التى جرت أثناء سباته . كيف وقعت حرب استقلال وكيف تحرر البلد من سيطرة إنجلترا العجوز ، وأنه لم يعد من رعايا جلالة الملك (جورج الثالث) بل هو مواطن حر للولايات المتحدة .

لم يكن (ريب) يبالى بالسياسة فى الواقع ، ولم تؤثر فيه قصص تغيرات الولايات .. لكن كان هناك نوع واحد من الاستبداد عانى منه كثيراً .. هذا هو (حكومة التنورات) .. لحسن الحظ انتهى هذا ولم يعد عنقه فى مصيدة الزواج ، وصار بوسعه أن يخرج ويدخل متى أراد من دون التهديد الاستبدادى للمدام (فان ونكل) .

كلما ذكر اسمها كان يهز رأسه وكتفيه وينظر لأعلى . وهو انطباع كان يمكن تفسيره بالاستسلام لقدره أو فرحة الخلاص .

اعتاد أن يحكى قصته لكل غريب يصل لفندق مستر (دوليتل) ، وقد لوحظ أنه كان يغير بعض النقاط كلما حكى القصة ، وهذا يرجع فى الغالب لأنه استيقظ من

وقت قصير . فى النهاية استقر على القصة كما حكيتها أنا .. وما من طفل أو امرأة إلا ويحفظها عن ظهر قلب ..

أحيانا يشكك البعض فيها ويصرون على أن (ريب) كان يخرف ، وهذه النقطة كانت تجعله متأهبًا للشجار دومًا . إلا أن السكان الهولنديين يعطون القصة حقها بلا استثناء ، وحتى اليوم لا يسمعون عاصفة رعدية فى عصر صيف عند (كاتسكيل) إلا وقالوا إن (فردريك هدسون) ورجله يلعبون لعبة الأوتاد التسعة .

ويتمنى كل الأزواج الخنوعين فى المنطقة حينما تسوء الأمور معهم أن يجدوا شربة تمنحهم بعض الراحة فى قنينة (ريب فان ونكل) .

* * *

ملحوظة :

كما يمكن للمرء أن يعتقد ، فان القصة السابقة قد استوحاها مستر (نيكر بوكر) من خرافة ألمانية صغيرة عن الإمبراطور فردريك روزبارت وجبل (كيفهاوزر) .. إلا أن المذكرة الملحقة بالقصة تؤكد أنها حقيقة مطلقة كما يقول بأسلوبه الصادق :

- ربما تبدو قصة (ريب فان ونكل) لا تصدق لدى كثيرين ، لكنى أصدقها بالكامل لأننى أعرف تلك البقاع المجاورة لمستوطناتنا الهولندية ، وأعرف أن كل أنواع الغرائب تحدث فيها . لقد سمعت قصصًا غريبة أكثر من هذه فى القرى المحيطة بنهر هدسون ، وكلها موثقة لا تسمح بالشك .

لقد تحدثت مع (ريب فان ونكل) بنفسى ، وآخر مرة رأيته فيها كان رجلاً مهيبًا عجوزًا جدًا لكنه عاقل وكلامه متسق فى كل النقاط .. لهذا لا أعتقد أن أى شخص ذى ضمير يمكن أن يرفض هذا ، دعك من أننى

رأيت شهادة عن الواقعة أخذت فى المحكمة وختمت بالصليب بيد القاضى نفسه . لهذا فالقصة فوق أية شبهات .

د . نيكر بوكر

تعقيـب :

الملاحظات التالية هـى مذكرات كتبها مستر (نيكر بوكر) :

إن مرتفعات (كاتسبيرج) أو (كاتسكيل) منطقة تعج بـالقصص الخرافيـة . كـان الهنـود يعتبرونهـا مسـكن الأرواح التـى تتحكم فى الطقس والشمس والسـحب . وهى التى ترسل فصول الصيف الطيبة والفقيرة .

قيل إن روحا هندية كانت تحكمها هى أمهـم .. كانت تعيش فى أعلى قمة وكانت تفتـح الأبواب وتغلقها فـى الصباح والمسـاء .. كـانت تعلق الأقمـار الجديـدة فـى السماء وتقطع القديمة لتصنع منها النجوم . فى وقت الجفاف كـانوا يستعطفونها فتنسج سحب السماء من نسيج العنكبـوت ونـدى الصبـاح لتصنـع نـدف قطـن وتقذفها فوق المرتفعات لتطفو فى الهـواء حتى تذيبها الشمس .. هكذا تهطـل الأمطـار فينمو العشب وتنضـج الفاكهة ويستطيل القمح بوصة فى الساعة .

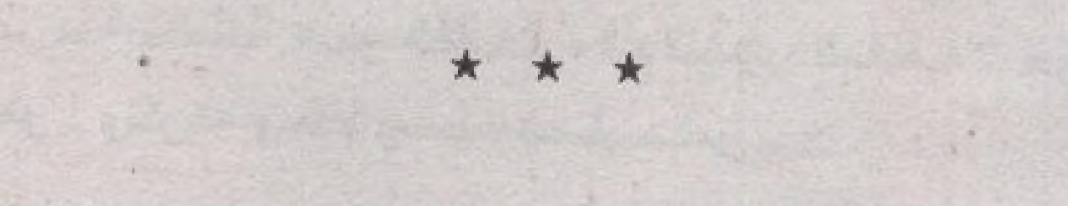
أما إذا تضايقت فكانت ترسل سحبًا متعفنة سوداء كالحبر .. ثم تنفجر السحب فتغرق الوديان !

يقول الهنود إنه في الزمن الغابر كانت هناك (مانيتو) أو روح تجول في مرتفعات (كاتسكيل) وتتلذذ بجلب المصائب على الهنود الحمر . أحيانا تتخذ شكل دب أو فهد أو غزال وتأخذ الصياد في رحلة مرهقة مضللة عبر الغابات ، ثم تنفجر صائحة : هو هو ! وتتركه وحده وسط إعصار مدمر ..

ما زال مسكن المانيتو موجودًا .. إنها صخرة عملاقة في أبعد موضع من التلال تلتف حولها الكروم والأزهار البرية ، ويطلقون عليها اسم (صخرة الحديقة) . عند أسفلها بركة يعيش فيها مالك الحزين ، وعلى السطح أزهار سوسن ينام فوقها ثعبان الماء . كان الهنود يهابون هذا المكان بشدة حتى إن أجسر الصيادين لم يكن يتبع فريسته هنا ..

ذات مرة ضل صياد طريقه واخترق الغابة حتى صخرة الحديقة ، حيث رأى عددًا من القرع في تجاويف

الشجر . انتزع واحدة منها لكنها سقطت منه بين الصخور فثار طوفان أغرقه أسفل الوهد . وتناثرت أشلاؤه بينما واصل الطوفان طريقه إلى نهر هدسون وهو يتدفق حتى يومنا هذا .. وهو المجرى المائى الذى يطلقون عليه (كاترز كيل) .



إيرفنج واشنجتون

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب

59

أسطورة سليبى هولو

- الفارس مقطوع الرأس الذى يعترض طريق تعساء الحظ الماشين ليلاً فى (سليبى هولو) ..
- الصفقة المريبة التى عقدها الشيطان مع (توم وكر) ..
- (ريب فان ونكل) الذى أفاق بعدما نام عشرين عامًا ...
- الزوجة التى يخفى عنها زوجها خبر إفلاسه ..
- هذه بعض لمحات من عالم (واشنجتون إيرفنج) الذى يعرفه الغربيون جيدًا ..
- هل تعرف معنى أن يكون المرء (نيكر بوكر) ؟
- إذن لماذا لا تقرأ الكتاب بدلاً من إضاعة وقتك الثمين هنا ؟

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن فى مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع

